شرح

الإبانة عن أصول الديانة

BOBST LIBRARY
3 1142 02886 6815

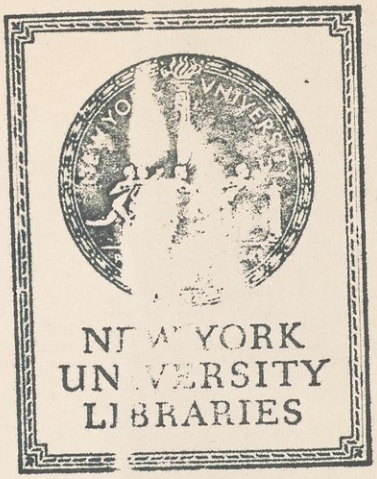

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

70-962127

al-Samāwī, Aḥmad al-Shaykh 'Abd al-Ḥamīd.
"

احمد الشيخ عبد الحميد
السماوي

Ma'a Īlīyā Abī Māḍī fī Ṭalāsimih.

مع
إيليا أبي ماضي في طلاسمه

وهو شرح لمنظومة والده الحجة السماوي التي رد بها على
(طلاسم ايليا أبو ماضي)

الطبعة الاولى

١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م

مطبعة النعمان النجف الاشرف تلفون ٩٩٧

Near East

PJ
7808
.M3
T338
1968
c.1

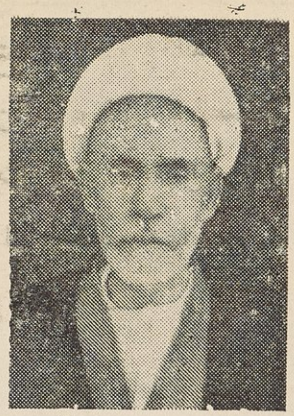

الحجة المرحوم السماوي
في سطور

هو الشيخ حميد بن الشيخ احمد آل عبد الرسول الشهير بالسماوي عالم جليل نيقد في تأملاته وافكاره يمتاز بطابع شعري خاص .

ولد في السماوة عام ١٣١٥ هجرية ونشأ في احضان والده ، ارخ عام ولادته العلامة المؤرخ الشهير بالشيخ محمد السماوي صاحب الطليعة (فاق عبد الحميد فضلا ومجداً) وسما في الانام جداً وجدا

هاجر الى النجف الاشرف مهد آبائه واجداده وهو شاب حدث فاختلف على مهرة الفن واساطين العلم وتخرج على اساتذة جهابذة كالمرحوم الشيخ محمد حسين النائيني والشيخ الاصفهاني وكان يعد من الطبقة العالية في الاوساط العلمية .

وما ان طالت هجرته حتى ألح عليه - اهل السماوة - بالرجوع الى بلده ومسقط رأسه فلم يجد بداً من الاستجابة بعد ان توفرت لديه المعلومات الكافية والاحاطة التامة بعلمي الفقه والأصول .

السماوي شاعر فحل بما أوتي من قوة ذهنية وقادة ، وفكر ناضج ، وعبقرية فذة له ثلاثة دواوين - الأول وقد ضاع - وسرق الثاني - اما

الثالث فهو الذي يضم شعره الأخير وقد اصبح احد اعلام الشعراء في العالم العربي ومازالت اندية النجف الاشرف تتمتع بروائعه الخالدة ، ثم اختفى زمناً وبعد ذلك برز بلون ادهش الكثير من اخدانه فانبرت الصحف والمجلات تتنافس على نشر الوان منه . وله رباعيات تضمنت بعض خواطره وقد عنونها بآراء وصور . ومن شعره رباعياته التي عارض بها الطلاسم - لايليا ابي ماضي - والتي عنوانها - فوق أثباج الطبيعة -

وفـــاته

انتقل الى رحمة ربه يوم٣رجب سنة ١٣٨٤ هجرية و١٠ / ١١ /١٩٦٤م وشيع جثمانه الى النجف الاشرف وجرى له تشييع مهم عطلت له الاسواق واغلقت له المحلات وخرجت له مواكب عزاء في كل من الكاظميـــين وكربلاء والنجف الاشرف حيث دفن هناك تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جناته وانا لله وانا اليه راجعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد

الاهـــداء

اليك يا ابـــي هذا المجهود صغر ام كبر وكان بودي ان اقدمه اليك لتقول فيه كلمتك وذلك لاني عشت في اجوائك وتحت ظلالك فترة غير قصيرة وما ادري هل استغرقت تلك الجوانب ام فاتني الشيء الكثير منها لهذا كان بودي ذلك

ولدك

احمـــد

تفضل سماحة اية الله العظمى الفيلسوف الاكبر الحاج السيد ميرزا حسن الموسوي الهجنوردي فقرض الكتاب بما جادت به يراعته ونحن نثبتها هنا معتزين بما تفضل به سماحته .

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد وعلى آله المعصومين الطيبين الطاهرين :

أما بعد ، فقد طالعت هذا الكتاب : من نظم حجة الاسلام والمسلمين المرحوم الشيخ عبد الحميد السماوي ، وشرح ولده - وولدنا - حضرة العلامة المفضال الشيخ أحمد السماوي ، حفظه الله تعالى وأيده ، وسبرت عامة مسوداته نظماً ونثراً متناً وشرحاً - فوجدته - والحق يقال - أن مطالبه كلها موافقة الى الأدلة العقلية ، ومطابقة الى البراهين الدقيقة الفلسفية ، بحيث جمع فأوعى ، وأدرج كل شاردة وواردة من هذا الفن الذي تزل فيه الأقدام وتكل فيه الأوهام ، الا من أوتي حظاً وافراً من الفهم وسعة شاملة من العلم والتحقيق .

فلقد أجاد المرحوم الناظم كل الاجادة في دفع الشبهات والشكوك التي أوردها (ايليا أبو ماضي) في (طلاسمه) ولم يبق مجالا للشك والشبهة من أهل الذكاء والفطنة والفهم والمعرفة ، فكان نعم السلاح العلمي لصاحب الايمان على دفع شبهات الكفر والالحاد ، فجزاه الله عن الدين والاسلام خير جزاء المحسنين .

وكذلك الشرح ، فلقد جاء في غاية الجودة والدقة والمتانة والتحقيقات العلمية والبراهين العقلية والأدلة الفلسفية ، بحيث كان المتمم لفائدة النظم وهكذا يجب أن يكون الولد الصحيح متمماً لكيان أبيه ، وقديماً قيل فى المثل: (ومن يشابه أبه فما ظلم)

رحم الله تلك الروح الطيبة التي أنبتت هذ النبات الطيب الذي يؤتي اكله كل حين باذن الله ،

والله الهادي الى سواء السبيل

١٢ ربيع الثاني ١٣٨٧

حسن الموسوي البجنوردي

مباحث هذا الكتاب

١ ـ الحركة الجوهرية

٢ ـ تجوهر الاعراض

٣ ـ النفس وكيفية نشأتها

٤ ـ قضية اثبات الواجب

٥ ـ استحالة صدور هذا النظام من المادة وغيرها

(١)

جئت لا اعلم الا انني جئت لأعلم
فتخطيت بكوني ساحة الكون المطلسم
حيث ساد الصمت لولا وحي عجماء لأعجم
حيث لا هامس الا وهو مثلي
ليس يدري

يقصر ابو ماضي علمه على انه قد جاء وابصر الطريق ومشى لاغير ، وهو محاط بجهالات من كل جهة عـدا انه قد جاء وابصر الطريق ومشى ولكنه لا يعلم كيف جاء ولا كيف أبصر طريقه الى آخر ما بعده من الامور التي يجهلهـــا ! !

ويقوم قباله شيخنا تغمده الله برحمته فيقول : انني اعلم ـ مضافاً الى انني قد جئت ـ انني ما جئت الا لاعلم اني كيف جئت ولأعلم كل امر يجهله ابو ماضي وبالطبع يتدرج الشخص من الجهل البسيط الى العلم لان الاحساس بالجهل كالسبب الاول لأن يخرج الشخص من الجهل الى العلم فمن احسّ بالجهل جاز ان يتبع ما به يزول جهله اما مع الجهل المركب فلا يعقل ان يطلب ما به يزول جهله لانه لا يرى نفسه جاهلا فمتى حصل الاحساس بالجهل وطلب ان يعلم يشرع في وضع المقدمات المنتهيه به الى العلم واسس شيخنا اول مقدماته لذلك بانه قد جاء فهو يعلم انه حادث ويشير الى الاحساس بالجهل البسيط بانه يعلم أنه ما جاء الا ليعلم :

ثم جعل كونه خطوة تخطى بها ساحة الكون المطلسم فهو يرى الكون مطلسما ولابد ان يكون خلف الطلسم سر والا فلا معنى المطلسم ان لم يكن خلف الطلسم سر وهذا الدور ينتهي بهذا المقدار من العلم

اما فيما عدا ذلك فقد ساد الصمت وليس هناك الا وحي عجماء واعجم فلا افصاح في هذا الحد وان انتهى هذا الصمت الى البيان وهذا الاعجام الى الافصاح ·

واما المصراع الرابع حيث لا هامس الا وهو مثلي ليس يدري ظاهر فيما ذكرنا وظاهر قوله ليس يدري انه من متعلقات قوله وهو مثلي ويحتمل ان يكون راجعاً لمن يقول لست ادري اي ان من يقول لست ادري لا يدري انني جئت لأعلم الى آخر ما ذكر في هذا الدور وهذا الاحتمال وان كان بعيداً عن ظاهر الكلام الا انه محتمل :

***

(٢)

عدماً كنت ولكن لست ادري ما العدم
ماج تيار وجودي بوجودي واحتدم
فاذا لي الف لحن واذا لي الف فم
واذا بي اتنزى في خليط
ليس يدري

يحتمل ان يكون انما لا يدري ما العدم لان العدم لا حقيقة له ولا وجود . ولا يتطرق العلم بالشيء الا من ناحية ذات الشيء بتحليل مركباته ومن طريق وجوده والآثار المترتبة على الوجود ولما كان العدم لا حقيقة له ولا وجود فلذلك كان لا يدري ما العدم :

ويحتمل انه انما كان لايدري ماالعدم لانه علم من اضطراب امواج تيار وجوده بوجوده وحيث لم يكن للعدم تيار فلذا كان لا يدري ماالعدم؟

وانما ماج تيار وجوده بوجوده لانه لما نظر لوجوده راى ان هناك الف جهة وجهة فهو وجود ولا يصدر وجود الا عن وجود لان العدم لا شيء ومن البديهي انه لا يصدر من اللاشيء شيء وانه حادث والحادث مسبوق بالعدم ولم يحدث بنفسه لان معنى حدوثه هو كونه وجد بعد ان لم يكن موجوداً فاذا كان لوجوده اقتضاء ان يوجد بذاته فلماذا لم يكن موجوداً قبل ذلك وقد عرفت انه لا يصدر عن العدم شيء فلذا كان له من احدثه وزجه في هذا الكون لما تم له الاستعداد لان يوجد في الوقت المختص به وانه من جماد ثم نما حتى صار انسانا متخطياً ظلمات

الرحم وادواره حتى استهل وهو موجود يتركب جسمه من آلاف القوى فلذا كان له الف لحن والف فم واذا به في خليط ليس هناك في هذا الخليط من يشعر غيره والامر في قوله ليس يدري كسابقه يجوز ان يرجع الى الخليط ويجوز ان يرجع الى من قال لست ادري ، لانه لا يدري ان لوجوده تيارا ماج بوجوده ، وان منه كان له الف لحن والف فم .

* * *

(٣)

جئت للعالم اتلو صحف العـالم همسـا
جئت أملي فيه درسي ، وهو يمليني درسا
انا جزء الكون ان لم أك نفس الكون نفسا
أنا ادري اين منه أنا لكن

ليس يدري

انما كانت هذه التلاوة همساً ، لأن المراد من هذه التلاوة هو الادراك ولا صوت للادراك ، والكون يدرسه بما فيه من النظام التام ومن الدقة والتدبير من الارض وما فيها ، والسماء وما تحويها ، مما يكون وحياً فطرياً بالايمان بالله . (افي الله شك فاطر السماوات والارض)؟ وهو يملي هذا الدرس الذي تلقاه من هذا الكون ، ثم قال أنا جزء الكون ومعناه واضح ، واما قوله إن لم اك نفس الكون نفسا فيحتمل (١) وجوهاً . الاول ان الشخص الانساني هو صورة ومادة ، ونفسه صورته ، وبدنه مادته ، ومن المحقق المبرهن عليه في فنه ان شيئية الشيء بصورته لا بمادته . وان فيض الوجود يسرى من الصورة الى المادة ومن الفصل الى الجنس ، والماده هي الوجود اللامتحصل والصورة هي الوجود المتحصل ، فلذا صح ان يقال : ان نفسه هي نفس الكون حيث لا وجود لغير المتحصل الا الوجود الذي سرى اليه من الوجود المتحصل ،

الثاني ان مراده من الجزء الذي لـه الشعور المشار اليه بقوله : (انا) فأنها كاشاره والاشاره ، هنا الى الشعور ان ، هذا الجزء وان كان

---

(١) تشير الى وجهين منها .

هو جزء الكون : الا ان مالا شعور له يكاد ان يكون لا كيان له ، فصح لهذا ان يقال: ان هذا الجزء من الـكون هو نفس الكون كياناً واعتباراً فهو كل الكون بنحو من العناية ، وهناك وجه بل وجوه اخر اعمق وادق اعرضنا عن ذكرها لضيق المجال ، عنها اما اختصاراً ، او تعقلاً وبعد ان ذكر ان الكون املى درسه عليه وهو يملي الدرس الذي تلقاه منه وانه جزء الكون ان لم يلك نفس الكون نفسا ، فلا محالة انه يدري اين هو من الكون وقوله ليس يدري ظاهر ان من قال لست ادري لايدري بما هو عالم به ويحتمل .

ان يكون الذي ليس يدري هو الكون غـيره مما لا شعور لـه ومحصله على هذا انه هو يدري بمحله من الكون . ولكن الا كوآن غيره ليس يدرى ،وهذا الاحتمال الثاني لايخلو من بعد، على العكس من السابق ،

***

(٤)

جئت للعالم قسراً وسأمضي عنه قســرا
لست في الـكون طليقاً ، أنا والاكوان اسرى
أنا أدرى بمصيري وبأصــلي أنا أدرى
غير ان للـكل فى دور شقاء

ليس يدري

من الجلي الواضح ان المعلول الذي يوجد لتمام علته يكون مجيئه للعالم الذي وجد فيه قسرياً لا اختيارياً، ولو كان هو المختار لإيجاد نفسه لم يكن معلولا لغيره ، ولما كان العالم الذي جاء اليه عالم كون وفساد فلا محالة انه يمضى عنه ، لأن معنى فساد الكائن هو اضمحلال الكون الذي كان فيه ولما كان فساد الكائن ليس باختياره . بل لفقد الاقتضاء التام الذي اقتضى ان يجىء لهذا العالم ، فلذلك يكون مضيه عنه بالقسر لا بالاختيار ، ومنه يظهر انه لايكون طليقاً ، اذ التقييد بالعلة ينافي الاطلاق ولما كان الاكوان غيره مثله مربوطة بعلتها ، فهى مثله اسرى ايضاً غير طليقة ، ومما ذكره يظهر ايضاً انه يدرى بمصيره وهو المضي عن هذا العالم وقوله : وباصلي انا ادرى هو كالعله لعلمه ودرايته بمصيره ،ولعله انما كان ادرى باصله من مصيره فانه بعد ان علم ان اصله هو أنه ممكن حادث مرتبط بعلته علم انه جاء الى العالم قسراً وهو في عالم كون وفساد فلابد ان يدرى بمصيره لان العلم بالممكن بما كان وبالحاظر اقوى من العلم المتعلق بالمستقبل وبما سيكون وانما كان اقوى لانه علم بصورة مطابقها متحقق . بخلاف العلم المتعلق

بالمستقبل ، فانه وان كان علماً ايضاً ، الا انه متعلق بصورة مطابقها لم يتحقق ولما كان هو والاكوان جميعاً بالفعل في دار الدنيا التي يسود رنقها على صفوها وبلاؤها على رخاها وضراؤها علي سرائها واضطرابها على الاستقرار فيها . بل لاطمأنينية ولا سعادة ولا راحة ، فلذا كان الكل فيها في شقاء وقوله: ليس يدري راجعاً الى من قال : لست ادرى اجديد ام قديم انافي هذا الوجود هل انا حر طليق ام اسير في القيود) الى آخر ماقال : (فان شيخنا قال : انني ادرى انى حادث لا قديم واسير لاطليق وانه منقاد لغيره ولا يقود نفسه بنفسه .

* * *

(٥)

ليس لي عند اختلاجي في ضمير للكون قصد
جئت أعدو في طريقي وطريقي بي يعدو
سأوالي السير إن لم يك من سيري بد
وأجوب العالم الادنى الى ما

ليس يدري

لا محالة ان الذي يختلج في ضمير الكون قسراً ليس له في اختلاجه قصد ولما كان في تغير وتبديل من عالم الجنينيه الى ان يستهل ومن حين يستهل الى ان يهرم من النشوء والارتقاء الى حالة التوازن والتساوى الى الزوال والفقدان التدريجي من الضعف الى القوة ومن القوة الى الضعف فهو في حال حركة من حيث جوهر ذاته وفي حال حركة وتصرم من ناحية الزمان وفي كثير من مقولاته فلذا كان يعدو في طريقه وطريقه أيضاً يعدو به ولما كان اسيراً لا طليقاً فلا محاله ايضاً يوالى السير حيث لايكون من سيره بد ولما كان يسير من عالم الى عالم آخر كما سيصرح في الدور الآتي فلذا كان يجوب العالم الادنى الى عالم آخر لايدرى به من قال لست ادرى .

(٦)

سوف اجتاز طريقي بين واحات الخلود
وسينزو بي كوني مـن وجود لوجـود
فركود الجسم لايبعث في الروح الركـود
فهي تدري انه فيما تعـانى
ليس يدري

ينبغي ان يكون مراده من اجتيازه الطريق بين واحات الجلود هو السير في عالم البقاء كما اشار اليه الذكر الحكيم (وسيق الذين آمنوا الى الجنة زمراً حتى اذ جاؤها فتحت ابوابها وقيل لهم) الى آخر الآية المباركة من دون ان يذكر للشرط جوابـا .

وليس مراده اجتياز واحات الخلود الى غيره اذ ليس وراء الخـلود شيء حتى يكون اجتياز اليه وهو واضح ولما ذكر في الدور السابق انه سيجوب العالم الادنى الى غيره بمناسبة التقابل بين العالمين فالعالم المقابـل للعالم الادنى هو العالم الاعلى ومن الواضح ان العالم الاعلى هو غير العالم الادنى فهو اذاً وجود غير وجود العالم الادنى ولذا قال وسينزو بي كوني من وجود لوجود ولما كان الانتقال الى العالم الاعلى انما هو بالنفس لا بالجسم ولذلك عقبه بقوله فركود الجسم لايبعث في الروح الركود .

ومراده من ركود الجسم عـدم انتقاله لاعدم حركته والا فالجسم ايضاً في حركة الا ان حركة الجسم الى الانحلال والفناء وحركة النفس الى الانتقال والبقاء ولما كان الجسم بما هو جسم لاشعور له والشاعره هي النفس ولذا قال فهي تدري انـه فيما تعانيه في هذ الكون وليس يدري الجسم به .

(٧)

سوف ترتج حياتي في صمير الكائنات
ويدوي صوت نعيي من مجاهيل الحياة
وسيندك كياني وستنحل النواة
وسأدري انني كنت كغيري

ليس يدري

المراد من هذا الدور واضح فانه يعرض فيه صور الانتقال من هذه الحياة الى الحياة الاخرى ولما كانت هذه الحياة حياة كثر فيها الجهل والسبات والاسداف والشهوات فلذا جعل نفسه صادراً من مجاهيل الحياة ولما كان الشخص بعد الانتقال من هذه الحياة يعلم انه كان نائماً فانتبه وغافلا فالتفت (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) لذا قال : وسأدري انني كنت كغيري ليس يدرى

* * *

(٨)

اظلم الدرب فجاشت فيه رعناء العقول

وتنزت فتنزى الدرب سعـلاة وغـول

فإذا الاشباح تعدو واذا الوهم يجـول

واذا بالرائد المدلـج فيه

ليس يدري

يستعرض في هذا الدور السبب الذي تلاعب بالعقول الرعناء وهـو كـون الدرب مظلماً وظـلام الدرب اما كناية عن الجهل او عدم كون دليـل الهداية ممـا يحس بالحواس الخمس كالمبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات بل هو مما يدرك بالحس النفسى بالالتفات الى مـايؤدى الى بصيرة النفس واشراقها بالنور الرافـع لحجب الجهـل والضلال او انه كناية عن الشبه البدائيه الزائله بمحض التروى والتدبر ولو بابسط الآثار والادلـة ، ولذلك قد جاشت في هذا الدرب المظـلم هي خصوص رعناء العقول دون العقول الحكيمة الرصينة المطمئنة ، ولما كان الجائش مضطرباً متوثباً تنزت هذه العقول الرعناء ، ثم فرع على ذلك بقوله فتنزى الدرب سعلاة وغول والمراد بالسعلاة والغول هي الاوهام والتخيلات الطائشة الخاطئة ولذا كنىّ عنها بالسعلاة والغول لانها محض خيال لاواقع لها ، وينبغي ان لايخفى ان الدرب اما منصوب بنزع الخافض اى تنزى في الدرب لأنه قاصر لايتعدى الى المفعول بنفسه أو انه ضمن معنى فعل

متعد كأن يكون مراده من تنزيههما هو اضلالهما الطريق على العقول الرعناء ، وعلى كل فحيث كانت الاوهام الطائشةقد تنزت فرع على ذلك ايضاً بقوله واذا الاشباح تعدو واذا الوهم يجول . اي التخيلات تعدو في هذا الدرب والأوهام تجول ونتيجة ذلك ماشار اليه بقوله واذا بالرائد المدلج اي المنتجع لاهله لكنه لما سار في هذا الظلام لافي وضح النهار فهو ليس يدري ولم يهتد وانما قلنا ان سير هذا الرائد كان في ظلام لأن الأدلاج هو السير في الليل .

* * *

(٩)

كم شعوب قـد ترامت مرقلات ودول
زاحمت أوهامها الدهر فاشقاها الكلل
فهوت صامتة الادراك خرساء الأمـل
واشاحت وهي لاتدري عمن
ليس يدري

حاصل هذا الدور ان كثيراً من الشعوب والدول قد ركضت في هذا الدرب المظلم وهي ضالة لأنها تعلقت بأوهامها واخذت بها حتى زاحمت بها الدهر ولما كانت السعادة والنشاط منحصرة بالعلم الموصل فلا محاله يكون في الاوهام الشقاء والكلل ولذا قال فأشقاها الكلل ، ثم فرع على ذلك بقوله فهوت صامتة الادراك خرساء الامل ، والتفريع واضح لأن لازم الاوهام التردد والمتردد لاينتهى ان شيء يقتنع بهادراكه فلذا هوت صامتته الادراك ولما كانت الغاية هي الحصول على النتيجة والمتردد في اوهامه لم يحصل على نتيجة فلذلك كانت خرساء الامل ولما اشقاها الكلل وهوت صامتة الأدراك وخرساء الامل - ومتى كلت النفس وشقيت بكللها فلا بد وأن يستبد بها الأعراض - فلذا قال واشاحت وهي لاتدري لأنها ماانتهت الى شيء عمن ليس يدري لأن غيرها مما لاشعور له ولااوهام له هو ايضاً ليس يدري .

(١٠)

عبرت من قبلها الاجيال رعناء الحياة
تتناجى هي والعالم في شتى اللغات :
مانواة الكون ؟ مامصدر هاتيك النواة ؟
ذاك لغز ، فيه حتى العقل أضحى
ليس يدري

الظاهر ان مراده من رعناء الحياة هي رعناء العقول ، ويجوز ان يكون مراده مطلق الحياة بمحض كونها وجوداً حياً . وعلى الثاني فيكون تناجيها مع العالم لابد وان يكون لضرب من التأويل وهو انه بعد ان كانت وجوداً حياً لها لغات شتى والمراد من لغاتها اما ظاهره وهو حقيقة التلفظ . او أن المراد من لغاتها اختلاف شؤون الموجودات . فبطبيعة الحال لها نواة ولكن مانواتها وما مصدر هاتيك النواة ولما كان الواضح من حالها انها وجود حي لاغيره فهي طبعاً مما يسئل عنها في غير الجهة الواضحة منها وهي جهة ذات نواتها وجهة مصدر نواتها ، ويؤيد الأحتمال الأول ظهور قوله تتناجى في كونها هي فاعلة المناجات وفاعل المناجات لابد ان يكون له شعور وادراك يريد التوصل بمناجاته الى حل مايسئل عنه . ويؤيد الأحتمال الثاني قوله ذاك لغزفيه حتى العقل اضحى ليس يدرى وهو ظاهر في ان رعناء الحياة غير العقل وعلى اي حال فهل نواتها مركب من الهيولى الأولى وصورة كمايراه جل الحكماء من المتقدمين

والمتأخرين او ان نواتها امر بسيط وهو الجوهر الفرد كما يراه بعض المتقدمين ، وقد برهن على محالية بساطته في كتب المعقول ، ثم ما مصدر هاتيك النواة لانه مما تطابق عليه آراء الحكماء بعد محالية التسلسل والدور لرجوعهما الى التناقض قطعاً ان لا محاله هناك واجب الوجود في البين فهل هو المادة غير ذات الشعور كما توهمه الماديون ، او هو مجرد عاقل بذاته وواجب بجميع جهاته ، كما يراه الألاهيون ولما كانت الحياة الرعناء هي المتناجية والسائلة والرعناء لرعونتها لاتنتهي الى غير ما يناسب رعونتها من الامر المعقول الثابت ولذا قال عن لسانها ان مانسئل عنه هو لغز غير واضح عندها وانه حتى العقل اضحى ليس يدري الجواب عنه .

***

(١١)

جهجه الحادي ففاض الدرب في قفل المنيه
واختبت جيلا فجيلا في ضمير الأبديه
فالتمث وحدك ياموت لتحيى العبقريه
فلقد أسرفت لو تدري فيمن
ليس يدري

الجهجه هي الصياح والقفل يحتمل ان يكون بالفتح والمراد منه اما الجمع يقال قفل الطعام قفلا اذا احتكره وجمعه ، او المراد منه اليبس والجفاف فان القفل ايضاً هو مايبس من الشجر ، او المراد منه الرجوع الى حياض المنية ويحتمل ان يكون بالضم وهو مايغلق به الابواب والمنية حيث ان بها ينسد باب هذه الحياة الاولى فهي كالقفل لهذا الباب، وعلى كل المراد واضح والمراد ايضاً معلوم في قوله: واختبت جيلا فجيلا في ضمير الأبدية . فأن اختفاء الاجيال محسوس وكل مالا عودة له فهو في ضمير الابدية ولكن ماينبغى ان ينبه عليه قوله : فالتمث وحدك ياموت لتحيا العبقرية . لماذا طلب ان يموت الموت وحده لان تحيا العبقرية فما الصلة بين الموت الموت وحياة العبقرية .

يحتمل ان يكون الارتباط بين موت الموت وحياة العبقرية هو ان الأوهام والتخيلات التي وقفت بالعقول الرعناء والحياة الرعناء عن ان تصل الى واقع الحق هو انغمارها في عالم المادة المظلمة فلو ، كانت الحياة حياة

المجردات ـ التي ثبت في فنه ان كل مجرد عاقل عقلا كاملا ـ لكان الحق لديها اوضح من الشمس في رائعة النهار ، وكيف لانكون كذلك وهي المشرقة بنور ربها والعقل هو اول ماخلق الله كما استفاضت بـه الروايات عن اهل بيت الوحي صلوات الله عليهم اجمعين .

ويحتمل ان يكون الداعي لطلب الموت لتحيا العبقرية هو انتهاء هـذا العالم والانتقال منه الى عالم مابعد الموت فأن فيها ينتبه الناس من سباتهم ويرجعون الى ربهم مذعنين مسلمين قد اتضح لهم الحق واستبان لهـم الواقع ، فلا وهم هناك ولاخيال ولا شك ولا ضلال وهل هناك افضل واجل من عبقرية المعرفة الكاملة والأنكشاف التام . ولما كانت هذه الاجيال المترامية ذات العقول الرعناء كلها قضى عليها الموت فقال: مخاطباً للموت فلقد اسرفت لو تدري فيمن ليس يدري .

* * *

(١٢)

كم يعيش العقل مغموراً بتيار الخيال
ويعود الفكر مشلولا بناموس الضلال
ويقوم الدهر في دور كفاح ونضال
فترى العالم كالجاهل فيه
ليس يدري

يريد بالعقل المغمور هو العقل الأرعن الناقص لا العقل الكامل المستقيم لأن الذي يغمره تيار الخيال هو الاول لنقصه واضطرابه . اما العقل التام الثابت فلا يعبث به الخيال بل يضع يده على موقع الخلل فيه فيصلحه وينظمه وينتهي منه الى النتائج الصحيحة . ومثله مراده من الفكر المشلول بناموس الضلال ، فأنه هو الفكر الضعيف الهزيل المعدوم الاستعداد فلا مناعة فيه ولذلك اضحى مشلولا بناموس الضلال . ومراده من قيام الدهر بدور الكفاح والنضال يحتمل وجهين :

الاول هو مااشتمل عليه من الادلة الكافية التي منها يقوم العقل الكامل سداً دون تيار الخيال ، ومناعة تقي من شلل الضلال . فأن الدهر بما فيه ممكن والممكن مسبوق بالواجب لامحالة والا لما اخذ حظه من الوجود ، لانه ليس هناك غير الممكن الا العدم والواجب . والعدم لاشيء ولايصدر من اللاشيء شيء والممكن لايصدر نفسه والالزم الترجيح بلا مرجح المستلزم للترجيح من غير ترجح فلا يبقى في شقوق هذا التقسيم الا الواجب جل جلاله وهو الأول والآخر المبدىء والمعيد .

والدهر ايضاً بما فيه موجود وليس لنا الا الماهية والعدم غير الوجود وقد ثبت في محله اصالة الوجود ، وقد عرفت ان المعدوم لاشيء والماهية غير اصيلة وانما هي حدود للوجود تنتزع منه. والامر الانتزاعي لايعقل بالبداهة ان يكون علة لمنشأ انتزاعه. فلم يبق الا الوجود والوجود اما تام ضروري التحقق بذاته واما ناقص لاقتضاء في ذاته لضرورة التحقق فلا محالة يكون الوجود التام هو اصل الموجودات واليه تنتهي هذا الكائنات وتفصيل ماذكرنا موكول الى محله .

وايضاً فأن الدهر بما فيه من النظام والتدبير من السماء وما اشتملت عليه من المجموعات الشمسية ونظامات مجاريها وأعاجيب حركاتها ودورانها حتى انه لو ختل فيها ولو مجرى واحد منها لارتطمت بعضها ببعض وللسق الكون كله على مافيه من الكثره والسعة والعظمة بحيث تكاد تتجاوز حد الحساب والتحديد ، وما في الارض من دقيق وجليل .

ويكفي ان يبهر التعقل مافي الانسان وحده مما لايكاد يحصى من قوى واعمال ومعامل وعمال ، فضلا عما في البحار وما انطوت عليه ، واليابسة مما فيها وما عليها ، فهل يصح ان يستند هذا كله الى المادة العمياء الصماء البكماء . فلو لم يكن هناك من الادلة الوافية الضافية على اثبات ان مبدع الكون واجب وجود ذو شعور لكفى ماذكرناه دليلا لايقبل التشكيك بمحض ميسور من الالتفات واقل قليل من الانتباه وفهم اوليّ وعقل بدائي لليقين به عز شأنه وجلت قدرته وتعالى عن ريب المرتابين علواً كبيراً . فإتضح مما ذكرناه كيف يقوم الدهر بدور الكفاح والنضال ، وعلى هذا الاحتمال فالدهر فاعل يقوم .

الوجه الثاني ان يكون فاعل يقوم ضمير مرجعه اما الفكر المشلول او العقل المغمور والدهر منصوب على الظرفية فيه، والمتحصل من هذا الاحتمال هو ان العقل المغمور او الفكر المشاول يقوم بالكفاح والنضال ، لكن كفاحه ونضاله اما عن الخيال والضلال فيكون كفاحاً ونضالا عن الباطل المحض ولم يكتف بجهله حتى صار يكافح عنه ، واما ان يكون كفاحه ونضاله لاعن الخيال والضلال بل لاينتهي الى شيء ،ولكنه لما كان مغموراً ومشلولا فلا ينتهى في كفاحه ونضاله الى محصل يطمئن اليه ، فهو مدى الدهر في دور الكفـاح والنضال ، وتفريعه في المصراع الأخير بناسب الاحتـمال الثاني . لوضوح ان العالم ذا العقل المغمور والفكر المشلول هو كالجاهـل ليس يدري وعلى الاحتمال الاول فلا بد ان نتخطى المصراع الثالث ليكون تفريعاً على المصراعين الاولين وهذا يكون كالطفرة فلذا قلنا انه يناسب الاحتمال الثاني .

* * *

(١٣)

فهل انسد عـلى العالم بـاب الاجتهـاد
وتلاشى في ظلام الجهل نبراس الرشاد
واستحالت جمرة الحق رماداً في رماد
ام توارت فكرة الشاعر فيما
ليس يدري

يستفهم في هذا الدور عن السبب الداعي لأن صار العالم كالجاهـل ليس يدري فهل كان ذلك لأنه انسد على هذا العالم باب الاجتهاد ؟ اي ان هذا العالم المغمور عقله والمشلول فكره قد انسد في وجهه باب الاجتهاد المؤدى به الى الحق ، وهل تلاشى في ظلام جهله نبراس رشاده ومصباح هدايته ، وهل استحالت عنده جمرة الحق المتوهجة الى رماد في رماد ؟ ام هل توارت فكرة الشاعر في ظلمات الجهل وعدم الدراية ؟ والاستفهام ينبغي ان يكون اما انكارياً او تعجيبياً .

(١٤)

فصموت الشك يستنطق رأي الباحثين

ولسان الوهم قد يستصرخ العقل الرصين

وفم الحيرة يذكي جمرة الحق المبين

فيقود المرء مقسوراً الى ما

ليس يدري

صموت الشك واضح لأن الشك هو التردد بين طرفين لم يتعين ماهو الحق منهما فالشك صامت عن تعبيره ، واستنطاق رأي الباحثين ايضاً واضح لان مالاشك فيه معلوم ولا وجهة للبحث عما هو معلوم ، ومما ذكرنا يظهر الوجه في استصراخ الوهم العقل الرصين ، واما أنه لماذا يستنطق الشك راى الباحثين ؟ ويستصرخ الوهم العقل الرصين ، فلأن النفس دائماً تطلب ما يلائمها والركون والطمأنينية من اهم ما يلائمها في عالم معقولاتها ولا طمأنينية ولا ركون لها في موهوماتها ومشكوكاتها .

فلذلك استنطقت رأي الباحثين واستصرخت العقل للحصول على ماهو المعلوم الذي به تستريح ، ولـه تركن ، وعليه تطمئن . وبما ذكرنا بان كيف ان فم الحيرة يذكي جمرة الحق المبين . لأن الحيرة تستوجب القلق وعدم الاطمئنان فيستدعي ذلك البحث عما به يحصل الاطمئنان

ولا بد ان ينتهي البحث بمقدماته الصحيحة الى النتيجة الصحيحة وهي التي يتحقق بها الاطمئنان وحينئذ تذكو جمرة الحق المبين وينبثق نور الهداية وينقاد المرء مضطراً الى اليقين ، لأن اليقين بالمقدمة يستلزم اليقين قهراً بالنتيجة ، ولم يكن قبل ذلك يدري بها وألا لما كان متحيراً ولا متوهماً ولا شاكاً .

* * *

(١٥)

أفكون فوق كون متوازي الحـــركات
شاسع الابعـاد رحب متداني الحلقـات
مفعـــم بالـــنور مغمور بأسرار الحيـاة
صادر عن غير قصد من مدير
ليس يدري

يستعرض في هذا الدور الى ثبات ان واجب وجود فاعل بالقصد والاختيار بنحو الدليل الأني من باب كشف الأثر المتقن بادق الاتقان والمحكم باوثق الاحكام عن مبدع اتقن خلقه ، واحكم تدبيره بحيث تأبى الفطره ويستنكر الوجدان ان يستند هذا الوضع العجيب !فوق حد الاعجاب الى المادة والصدفة ، بحيث لو زاغت لحظه بأقل من قيد شعره لدك العالم بعضه بعضاً وانطمس الكون وانمحى بأجمعه . وهب ان معوج الفكر ومستغرق الجهل قد اجاز ان يوجد العالم هكذا بنحو الصدفة. الخابطه بطبعها والمادة العديمة الشعور بذاتها ، فهل يجوز لدى هذا الجاهل المعوج ان تستمر الصدفة دائماً آخذة بزمام هذا العالم ومسيرة له على مابه يحفظ نظامه وتنسق حركاته ولا تشذ مجاربيه ولا تصرفاته ، وما الذي نكص بهذا الفكر المعوج ان يضيف الى المادة عقلاً واختياراً وحينئذ فالفرق ينحصر بالتسمية . ان هذا الأنحراف لعجيب ! وكيف لايكون عجيباً

ولو وضع هذا المنحرف مائة ورقه بيضاء ، ومائة ورقة سوداء ، وخلطها بعضها ببعض فما جائت الصدفة حتى الآن اذا ماسحبها هذا المنحرف المعوج ان تتنسق الاوراق المسحوبة بحيث تتتابع الاوراق المسحوبة البيضاء او السوداء واحده تلو الاخرى غير مختلطة ولا بسحبة واحده ، بيضائها بسودائها وان لم يصدق ماقلته فليجرب . واذا كانت الصدفة عاجزة عن ترتيب هذا العدد البسيط فهي اعجز واعجز عن تسيير مايكاد ان لايتناهى عده ولا حركاته ولا تصرفاته ، منضبطة مرتبطة بما فوق مانتصور من انضباط وارتباط ، لاتشذ خطوطها ولا تختلف حركاتها ولا تتزاحم تصرفاتها . ما اعلى كعب حظك وما اقوى بصيرتك ايتها المادة العمياء عند هؤلاء المعوجين وما اقوى سلطانك المسيطر وما اهدى هداك المدبر ايتها الصدفة البلهاء عند هؤلاء المنحرفين خلقت هذا العالم كله متلألئا بالنور وممتلئاً بالاسرار التي لم يتضح منها حتى الآن الا اقل القليل ، وما اسوء حظك اذ تجهلين حتى نفسك فضلا عن آثارك ومتبدعاتك التي كلها اعاجيب ! لايمكن ان يصدق ذو مسكة بذلك . ولهذا استنهم مستنكراً او متعجباً ؟ في هذا الدور بأنه ايكون كون فوق كون وهو متوازي الحركات ، اذ لو لم تكن خطوط حركاته متوازيه لأنتهت الى الالتقاء ولا اصطدم بعض ببعض وهو مع كونه شاسع الابعاد رحباً كما ثبت علمياً ان مساحة المجموعات الشمسية ربما يعجز الحساب بما لديه من ارقام عن احصائها فضلا عن مساحات خطوط سيرها وطرق مجاريها ، ومراده من تداني الحلقات اما تداني اجزاء هذه المجموعات وشموسها بعضها من بعض او تداني نفس المجموعات بعضها من بعض فأن

البعد مابينها وان كان شاسعاً جداً الا ان سرعة سيرها بما لايكاد يصدقه به الا اهـل الفن ، يجعلهـا متدانيه جداً بعضها من بعض لـو سارت مجموعة باتجاه المجموعة الاخرى. او ان مراده من تداني حلقاتها هو مانشاهده نحن عن بعد من قرب بعضها من بعض وهذه الاكوان كلها مفعمة بالنور كما نشاهده ، او ان مراده من النور هو نور الدلالة عـلى عظمة خالقها وجلالة باريها ، وهي مغمورة ايضاً بأسرار الحياة التي لم يعرف عنها العلم حتى الآن شيئاً سوى انها مفعمة بالاسرار افهل يصح مع هذا لدى جاهل فضلا عـن عالم وابله فضلا عن عاقـل ؟ ان تكون هذه الاكوان كلـها صادرة عن غافل لاشعور له من غير قصد واختيار وعن مدبر ليس يدري بشيء لا عنها ولا عن تدبيره لها بل ولا عن نفسه . لو انصف العقلاء لا هؤلاء المعوجين الخرافيين الذين هم بالمجانين او البدائيين اشبه منهم بالعقلاء او العلماء الباحثين لكن انا لله وانا اليـه راجعون ان يقـول هؤلاء المنحرفون ويسمعهـم الجهلاء المتحللون ويبتـلى العلماء ان يبرهنوا على مالا خفاء فيه ويستدلوا للأظهر بالظاهر وللا على بما دونه ويصح حقاً ان اقول : انه تعالى ظهوره وتجلى فوق افق التجلى نوره وهو اجلى من الجلاء واليقين به من البديهيات الاولية لمن نظر وتبصر : (ربنـا لاتزغ قلوبنا بعد ان هديتنا وهب لنا من لدنك رحمـة انك انت الوهاب .

(١٦)

همســات تتلاشى لجــلال الرهــج
وخيالات تنزى عن طريق الحجــج
مسح الحق دجاهـا بذبـال السرج
ومحى صفحتها السوداء عمن
ليس يدري

النسخة المطبوعة الرهج بالراء وهو ماثار من الغبار كما في معاجــم اللغة ، ومناسبته مع الجلال الذي به تتلاشى الهمسات غير واضحة الا بنحو من التأويل ، بأن يكون المراد ان جلال لادلة المستوجبة لليقــين تتلاشى في غباره فضلا عن همسات الشك الضئيلة ، وانما كانت همسات لانها لايستطيع ان يصرح بها صاحبهاحيث انها محض شك ووهم من غير ان تكون مستندة الى مايبرر هذا الشك والوهم ، ولذا ناسب ان يعبر عنها بالهمسات ، نعم في الاساس ورد مايمكن ان تتم به المناسبة قال فــي الاساس ارهج في الــكلام والصخب من دون ان يعقبه بتفسير ، وعليه فيصح نسبة الرهج الى الكلام ذي الصخب ومناسبته حينئذ مع تلاشى الهمسات في جلاله واضحة . ومن الواضح ايضاً ان الخيالات المظلمة لاتقف في طريق الحجج النيرة الواضحة . فهي تنزى عن طريق هذه الحجج . وأشار الى السبب في تلاشى الهمسات وتنزى الخيالات بقوله (مســح الحق

دجاها بذبال السرج) .

فأن سرج الحق وساطعات انوار حججه وبراهينه تمسح دجى التشكيكات والخيالات ، وتمحى صفحتها السوداء المظلمة وتجعلها بيضاء منيرة عمن كان ليس يدري .

* * *

(١٧)

سوف عن أحجية العالم ينشق الحجاب
ريثما ينفلق القشر ويمتاز اللباب
واذا اشتد شعاع الشمس ينحل الضباب
ويعود الكون وضاحاً على من
ليس يدرى

يحتمل ان يريد بالزمن الذي ينشق الحجاب فيه عن احجية العالم، وينفلق فيه قشر الاوهام والخيالات فيمتاز لباب الحق ناصعاً واضحاً هو مالا بد ان يكون في هذا العالم. بعد ان يمتليء العالم ظلماً وجوراً وضلالاً وفساداً فيظهر المصلح الذي يملأ الارض قسطاً وعدلا وصلاحاً كما هو معتقد الامامية بظهور دولة الحق على يد الحجة ابن الحسن ارواحنا فداه وعجل الله فرجه. ويحتمل ان يريد به عالم مابعد هذا العالم من الاخرى، وعلى كل حال فلا بد ان يكون ذلك وأن يتحقق، ومن الامور التي قياساتها معها ان باشتداد شعاع الشمس ينحل الضباب الذي كان موجوداً في حال ضعف الشعاع وترتب عودة الكون منيراً على ذلك واضح وحينئذ يدري من ليس يدري.

(١٨)

فشعوري بوجودي هو برهان الوجود

واضطراري في حياتي شاهد أني مقود

وكما جئت ابتداء سوف امضي واعود

فلماذا وهو ذو عقل وحس

ليس يدري

لدلالة وجود الممكن على وجود الواجب ، وحدوث الحادث المعلول على ازلية الفاعل القديم ، وكون الانسان مضطراً وبغير اختياره تقمص الحياة ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً وهذا دليل بين وشاهد واضح على وجود واهب لهذه الحياة الذي جعلها تغشت الانسان بغير اختيار منه ، ويدل ايضاً على اني مقود في هذه الحياة ، لبداهة استلزام كون الحياة للانسان اضطرارية ومن غير اختياره لأن يكون مقوداً فيها وغير مالك لأمرها ، ولما ثبت في محله تجرد النفس الناطقة ، وان المجرد لا انحلال له كما تدل عليه الكلمة المأثورة :

(انا خلقنا للبقاء لا للفناء) ، وكل ماذكرناه مبرهن عليه في محله بالبراهين القاطعة لذلك قال :

وكما جئت ابتداء سوف امضي عن هذا العالم ، واعود في النشأة الاخرى كما جئت في هذه النشأة وكما بداكم تعودون . وضرب لنا

مثلا ونسي خلقه قال : من يحيى العظام وهي رميم قل يحيها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم . فلماذا ليس يدري من قال لست ادري وهو ذو عقل وحس ، لو استرشد عقله وحسه لاهتدى لمثل ما اهتديت اليه ولما قال لست ادري :

* * *

(١٩)

قـد توسمت من النشء جلال المنشىء
وتعـرفت من الرشحة فيض المبدأ
وترسلت مـع الموجـة نحو المرفـأ
وتخطيت مـع العلم الى مـا
ليس يدري

من البين الجلي ان جلال الأثر يدل على جلال مؤثره ، وعظيم الفعل يدل علي عظمة فاعله ، ودقة اتقان الحادث تدل على احكام بداعة مبدعه ومحدثه . ولذا توسم من النشء بما فيه من جليل التدبير وعظيم الصنـع جلال المنشىء له . ومنه يتضـح انه كيف تعرف مـن الرشحة قداسة فيض المبدأ الذي منه ترشحت ، ومن المعلوم أيضاً انه لاتزال الموجه في تموج حتى تنتهي الى الساحل لأن المانع عن الحركة لايصدها الا اذا كان اقوى منها ولما كانت موجة الماء لاتصطدم الا بالماء وهو لخفته يقبل الحركه بأضعف محرك فلا يردّ حركة متحرك بل يتحرك بها فلذلك لاتنتهي موجة الماء الا بالساحـل الذي يبتدىء منه بداية الماء ، فمن تمشى واسترسل مـع الموجه فلا محاله يصل الى المرفأ ولما كانت موجودات هذا العالم كلهـا متحركة بالوجود الامكاني فمن استرسل بعقله مع موجة هـذا الوجود الامكاني المحتاج الى العلة لابد وأن يصل الى علة العال الذي هـذا

النشء من انشائه المقدس ، وهذه الرشحه ، من فيض فعله الأقدس ، واشار الى ما ذكرنا من الاستنتاج بقوله : وتخطيت مع العلم الى ما ليس يدري من قال لست ادري :

* * *

(٢٠)

حسبي الـكون دليلا كلما عز الدليل
وتخطيت بامكـاني ضفاف المستحيل
ان لي الف سبيل في وجودي وسبيل
قد تغشيت به الكون الى ما
ليس يدري

ومما ذكرنا يتبين كيف كان حسبه الكون دليلا أنياً على الواجب المكون اذا ماعز عليه الدليل العلمي المسمى في فنه (بدليل الصديقين) وهو الدليل اللمي الذي يكون الاستنتاج فيه لمياً من العلة الى المعلول كمامر التلميح الى طرف منه فيما سبق عند التعرض لبيان الدور الرابع عشر والى الدليل اللمي يشير ماورد في دعاء الصباح المروي عن امير المومنين عليه السلام . يامن دل على ذاته بذاته ، ومما مرّ يظهر ايضاً كيف تخطى بأمكانه ضفاف المستحيل . فانه بعد ان كان وجوداً ممكناً والممكن بذاته متساوى الطرفين بالنسبة الى طرفي الوجود والعدم فلايترجح وجوده الا بالعلة ولما كان حكم الامثال سواء وكل موجودات العالم ممكنة فكلها مما تحتاج الى العلة ، ولايعقل ان تكون علتها ممكنه ، والا لاحتاجت العلة ايضاً الى الترجيح بمقتضى بداهه تساوي حكم الامثال فلا محالة ينتهي الى الحكم البات ، بان العلة هي واجب الوجود بالذات ، والا لاستحال ان يوجد ممكن اصلا فالوجود الامكاني هو الذي به يتخطى العقل صفة المستحيل من محالية

استناده الى الممكن وانه لابد من أن ينتهي الى التصديق بالواجب بالذات ثم ان في الوجود الممكن الف سبيل وسبيل في الدلالة على الواجب بالذات من الامـكان ، والحدوث ، والتغير والاضطرار ، في حياته ووجوده وامكان حركاته وتصرفاته ، وشعوره بالفطره بان هذا النظام المحكم المتقن غايه الاتقان يستند الى موجد واجب بالذات عاقل بالذات مختار بالذات وفي كيفيات النشء وتطوراتها وانتقالاتها وتحولاتها وادائها في كل مرحلة لوظائفها ، واهتداء كل ذى شعور ماعـدا الانسان بغريزته الى منافعه وتجنبه لمضاره وكيفية ارتزاقه وتمام مرافق حياته التي بها يحفظ ويعيش الى غير ذلك من الجهات الكثيره المنبثه في انحاء عالم الموجودات الممكنه مما لاتكاد تحصى ، وفي توحيد المفضل بن عمر المروي عن الصادق عليه السلام مافيه الكفايه لأن نعرف في الوجود الف سبيل وسبيل كلها ايات واضحه الدلالة على عظمة الخالق المصور عز وجل شأنه ولما ، كان له في وجوده الف سبيل استطاع ان يتغشى الكون الى ماليس يدري به الكون او ماليس يدري به من قال لست ادري .

(٢١)

حسبي العلم بمالي من وجود وفناء
وبما يغمر دربي من ظلام وضياء
مرشداً يقرع سمعي بأهازيج القضاء
ودليلا يترامى بي الى ما
ليس يدري

ينتقل في هذا الدور الى الاستدلال على انه مرتهن بقضاء قادر يسيره وتدبير خالق يدبره فيقول : ان علمي بأن وجودي موهوب لي من غيرى وان فنائي ايضاً منه ، ومراده من فنائه انتقاله من عالم الدنيا الى عوالم الآخره كما مر منه التصريح به فيما سبق وعلمه ايضاً بما يغمر طريقه من ظلام وضياء ، ومراده من الظلام والضياء اما الليل والنهار ، او وضوح بعض الاشياء وغموض بعضها ، او نور الراحة وغسق العناء او سواد الضيق وبياض الرخاء ، وامثال ذلك من الاحوال المتبادلة التي يصح ان يكنى عنها بالظلام والضياء ، والمتحصل من ذلك ان علمه بأن هذا الظلام والضياء هما كالوجود والفناء بتسيير مسير وتدبير مدبر هو المرشد له ، لوضوح ان الليل والنهار من الحركات الامكانيه ومثلها سائر الاحوال فأن انعام النظر فيها يقضى بأنها بتقدير مقدر وقضاء مدبر ولا سيما على مايراه علم الاعلام الخواجه الطوسى في شرح الاشارات من انكار الصدفه وأن الصدفة امر تخيلي منتزع من تقارن بعض المعلولات

لبعض ، لأن كل مافي الوجود من الممكنات مرتبط بسلسلة علل ومعلولات منتهيه الى علة العلل وغاية الغايات ، وعلى كل حال فقد استرشد بما قرع سمعه في ارشاده الى اهازيج القضاء واقام ذلك له دليلا واضحاً ترامى به الى ماليس يدري به هو قبل الارشاد او الى ماليس يدري به من قال لست أدري .

***

(٢٢)

حسبي العجز اعترافاً بوجود المقتدر

ماانحسار الجيش الا رمز جيش منتصر

وغموض السر قد يستدرج العقل لسر

فهو لولا الليل بالشهب السواري

ليس يدري

يستدل ايضاً على ان العالم مرتهن بوجود مقتدر يسيره بقضائه وجعل احساسه بعجزه دليلاعلى ان يعترف بوجود المقتدر المدبر وكون الاحساس بالعجز موجباً لهذا الاعتراف ومستلزماً له يحتمل وجوهاً :

الاول : ان الشخص ربما يمهد المقدمات لحصول شيء يعتقد بدواً ترتب الشيء المقصود عليها ولكن مع ذلك لا يترتب ولا يحصل لا لخلل في المقدمات بـــل لامر يجهله وقع حاجزاً عن ذلك ، وماهو الا القضاء الخفي ، لأن تلك المقدمات هي كـــل مايستطيعه الانسان ان يكون سبباً ومقتضياً للانتاج ، وهي بطبيعتها تقتضي الانتاج فينحصر عدم حصول النتيجة لمانع من القضاء والقدر وألا لحصلت وترتبت ، فلا محاله يكون الاحساس بالعجز عن تحصيل ماأراده موجباً لاعترافه بوجود المقتدر الذي كان قضاؤه مانعاً عن الحصول .

الثاني : انه كما ان وجود الممكن محدود كذلك سائر قواه ومقدوراته

محدودة ايضاً ، وكما ان الممكن وجوده من غيره فكل قواه ومنها قدرته ايضاً كذلك ، فعجزه الذي هو حد قدرته يلزمه بالاعتراف بوجود مقتدر حدد قدرته له كما حدد وجوده له .

الثالث : ان مانعجز عنه هو ممكن من الممكنات وليس من المستحيل بالذات ، لان المستحيل بالذات كجمع النقيضين واجتماع الضدين مما يأبى بذاته عن الثبوت والتحقق لا ان العجز مانع عن تحققه وثبوته فما عجزنا عنه هو ممكن من الممكنات منع عن تحصيله ضعف قدرتنا عليه وربما يوجد ويحصل ماعجزنا نحن عنه ، ولا محاله يستند تحققه الى قادر لم تضعف قدرته عن تحصيله وحينئذ لابد وأن يكون الاحساس بالعجز مع حصول ماعجزنا عنه موجباً من غيرنا للاعتراف بوجود المقتدر .

الرابع : ان كل قادر ممكن يحس بفطرته ان وراء قدرته قدره لا تعجز عما يعجزهو عنه ، فدائماً احساسه بالعجز ملازم لاحساسه بقدرة مقتدر فوق قدرته ، ولما كان الاحساسان متلازمين كان احساسه بالعجز موجباً لاعترافه فطرة بوجود المقتدر ، ويشير الى ماذكرنا كلا او بعضاً قوله : بالمصراع الثاني من هذا الدور ما اندحار الجيش الا رمز جيش منتصر ، لبداهه ان نفس تقهقر الجيش واندحاره يدل دلالة كاملة على ان هذا التقهقر والاندحار ليس هو الا لوجود جيش اقوى منه قد انتصر عليه ، وهذا ينطبق على ماذكرنا من الوجوه اما كلها او بعضها ثم قال :

وغموض السر قد يستدرج العقل لسر ، والسبب في ذلك هو ان الشخص اذا صدق بأن هناك سر غير واضح يستدعيه ذلك للبحث عن

ذلك السر الغامض لأن العلم بالمجهول من اهم ما تلتذ به النفس وتأنس به ، فمن كان بصدد هذه اللذه يتدرج للبحث بعقله منتقلا من معلوم الى مجهول اولا ثم يكون معلوماً وهكذا حتى يصل الى سر ذلك الغموض ، وهذا امر محسوس ومشاهد ، ثم ضرب لذلك مثلا بقوله : فهو لولا الليل المظلم الغامض لم ير الشخص الشهب السوارى وان لها مدارات وتحركات فلولا الليل الغامض لم يدر الانسان بهذا العلم الواضح .

***

(٢٣)

صرخة الحق ترامت في صدى الكون المرن
وفم العدل يناجي كل ذي لحن بلحن
ان تكن أذنك صماء فما ذنب المغني
أو تكن لاتفقه اللحن فكم من
ليس يدري

بعد ما ذكر مافيه الدلالة البينة على وجود الواجب بالذات وشعوره واختياره في افعاله بالذات وقدرته وتسييره للعالم بقضائه وقدره وان هناك الف سبيل وسبيل في وجود شيخنا نفسه وفي وجود سائر الكائنات التي تدل على ذلك ، جعل تلك الدلالات كصرخة تنادي بالحق ترامى صداها المرن في جميع انحاء الكون ، وان فم العدل والانصاف والعدالة والاتزان في دقة النظام وكمال التدبير يملي ويناجي كل ذى لحن بلحن يفهمه لو اصغى اليه وتدبره ، ولم يبق هناك اي عذر في ان يتشدق الشاك بشكه ويتمطّى بتخيلاته وما اظلم من عكف على شكه وتردده وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد ـ وحسب ذي الحجة حين يقوم الخصام وتأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، ان يظهر حجته ويبديها لأن يرغم المخاصم على النظر فيها ، وقد ضرب لذلك مثلا ماالطفه وارقه بقوله :

ان تكن اذنك صماء فما ذنب المغني ، او تكن لاتفقه اللحن لانك لاتريد ان تفقهه لا ان هناك مانع يحجزك عن ان تفقهه وتفهمه

فلا يضر ذلك بوضوح الحجه وجلائها ، فأن التجاهل والتغافل عن الامر الواقع وهو ماثل في جميع جهاتك لا يغير الواقع عما هو عليه وكم هناك مثلك من ليس يدري مع انه يستطيع ان يدري .

* * *

(٢٤)

صدحت قيثارة الآمال من افق بعيد
فاستحالت همسات الحق عزفاً ونشيد
واطل النش من نافذة الكون الجديد
بعد ان فاجأه العالم فيما

ليس يدري

الظاهر ان مراده من الافق البعيد هو عالم ماوراء الدنيا كما يشير اليه في المصراع الثالث من هذا الدور بقوله :

واطل النشء من نافذة الكون الجديد ، فأن المنصرف من الكون الجديد هو العالم الجديد لا العالم الفعلي ، وايضاً فأن همسات الحق انما تستحيل الى عزف ونشيد فتسمعها الآذان وتكون من المحسوسات بحيث لامجال فيها للشك ولا للوهم فيما وراء هذا العالم ، وحينئذ يكون هذا العالم الصادح بالحق العازف به المرتل آياته وهو الكون الجديد الذي اطل النشء الجديد من نافذته مفاجئاً لمن ليس يدري بما كان لا يدري به ، هذا هو الظاهر ، ويحتمل بعيداً ان يريد بالافق البعيد هو انه لابد وان ينتهي العلم بأبحاثه ولو بعد امد بعيد الى ان يظهر الحق فيه بيناً واضحاً عازفاً منشداً ويكون حينئذ النشء فيه كنشء في كون جديد ، كون تصديق واذعان ، وتسليم واعتراف .

(٢٥)

خطرات غمرتها موجة العقـــل البسيط
وظنون جرفتها مـــن محيط لمحيـط
كلما اشتد خليط الوهم ينحل الخليط
وكما ينثال ينذاد ، ولـــكن
ليس يدري

هذا الدور ايضاً لايخلو عن ظهوره فيما ذكرنا ، من ان ظاهر الافق البعيد في الدور السابق هو عالم ماوراء عالم الدنيا ، فأن فيه يكون العقل بسيطاً ، لأن ظاهر مايريده من بساطة العقل ليست بساطته هناك ذاتاً في قبالة تركيبه في هذا العالم ذاتاً ، لأن الادراك والتعقل بسيط ذاتاً في هذا العالم ايضاً كما برهنوا عليه في محله من عدم الانقسام وغير ذلك ، وانما مراده من بساطة العقل : هو مثول الحق لديه مجرداً من كل شائبة شك او وهم فتلك الخطرات التي كانت تشوب تعقلاته وتختلط بها تغمرها هناك موجة التعقل البسيط المشاهد بعين اليقين ، وتلك الموجه من التعقل البسيط هي التي تجرف الظنون من محيطها التي كانت الى المحيط الذي تنجرف فيه تلك وتتلاشى،ومهما اشتد خليط الوهم في هذاالعالم ينحل في ذلك العالم وكما انثال وانصب هذا الخليط في هذا العالم يذاد ويطرد في ذلك العالم ولكن ليس يدري من قال لست ادري .

(٢٦)

حدثان الدهر يملي صفحات الحدثان
ولسان العدل يتلو العدل في كل لسان
ليس رب الشاة إلا مثل رب الصولجان
فهما سيان في الغد . وكل
ليس يدري

المراد من حدثان الدهر هو نوائبه ومآسيه ، كما نصت اللغه على تفسيره بذلك ، ومناسبته بهذا المعنى للمصراع الثاني وهو قوله : ولسان العدل الى آخره غير جلية ، ولكن ربما كان مراده ان حدثان الدهر ونوائبه ومآسيه من الظلم والعسف يملي الوانا وانواعاً ، عبر عنها بصفحات الحـدثان ولكنها في هذا العالم ، اما في العالم الآخر فليس هناك الا العدل والانصاف . ويجوز ان يكون المراد من لسان العدل الذي يتلو العدل في كل لسان هو ان ماوهبه الله تعالى في هذه الدنيا كان هبة على نحو العدل والانصاف ولم تختص هبته بأحد دون احد وقد وهب رب الشاة من الوجود والقوى في هذا العالم كما وهب رب الصولجان بلا زيادة ولا نقيصة ، وهما سيان في عالم الغد من كل جهة ، لأنه العالم الذي لاميزة فيه لشخص على آخر ونظامه جار على محض العدل والعمل ، وهنيئاً فيه لأهل العمل الصالح نعم في هذا العالم المغمور بالمادة شأن رب الصولجان فيه غير شأن رب الشاة ، ولهذا العالم نظام يختص به من التقلب والتغير ، اما العالم الآخر

فنظامه لاتغيير فيه ولا تقلب ، فأن ارباب الصولجان فيه هم المقربون السابقون والاولياء الصالحون الخالدون في جنة نعيم لانصب فيها ولا صخب ولا ينقلب حالهم ابداً الى ان يكون كحال رب الشاة في هذه الدنيا ، اما عالم الدنيا فقد يصبح رب الصولجان فيها رب الشاة وقد يمسى رب الشاة فيها رب الصولجان ، وكل من رب الشاة ورب الصولجان يجهلون العدل التام على اتم مايمكن ان يكون عليه عدل في عالم الأخرى بحيث لاميزة ولو بمنتهى مايمكن ان تكون الميزة من القلة ولذا قال :

وهما سيان في الغد وكل ليس يدري

***

(٢٧)

ما ارتباكي في طريقي ، كل آت فهو آت
إن ببحر النور خضنا أو ببحر الظلمات
ما ملايينـــــك يـــاعالم إلا في سبات
ما أهازيجك إلا ليس يدري
ليس يدري

يستعرض في هذا الدور ماعليه اهل هذا العالم مما لاينبغي ان يكونوا عليه فيبدأ بالأستفهام من نفسه استفهاماً انكارياً او تعجبياً ويقول :

ما السبب في ارتباكي في طريقي ، ومراده من طريقه هو هذا العالم الذي يجتازه الى العالم الاخروى . ولأي شيء ارتبك بين الخوف والرجاء مما يضمره الدهر مع علمي بأن ما يكون فيه كله بقضاء وقدر ، فما يأتي فيه لابد ان يأتي ومالا يأتي فيه فلا يأتي ممـــا ارضاه اوآباه . فارتبـاكي لايجلب قدراً ولا يدفع قضاء ، فهذا الارتباك مما ينبغي ان لايكون . ثم اشار بالمصراع الثاني الى مايمكن ان يـكون عليه ماهو آت ومراده مـن خوض بحر النور والظلمات هـــو الكناية عما يرضاه الانسان ويتبهج به ، وما لايرضاه ويستاء منه ، فان النفس تألف ماترضاه وترتاح منه كما تألف النور وتطمئن اليه ، وتستوحش وتنفر مما لاترضاه كما تستوحش تنـفر من الظلمه . ثم اشار الى ماعليه اهل هذا العالم مما لاينبغي ان يـكونوا عليه بما حاصله . ان اهل هـذا العالم كنيام لان تصرفاتهم وما يهتمون بـه

وما انصرفوا اليه وعكفوا عليه مما ينكرة العقل الصحيح والفكر الصائب ، فكأنهم يفعلون مايفعلون وهم على غير بصيره ورويه ، فعل من هوغارق في سباته . ثم جعل العالم بما احتوى عليه مما لو نظروا اليه لفعلوا فعل القضبان المتبصر ، فكان العالم ذو اهازيج يرددها - ان من فيه ليس يدري انه ليس يدري - ، هذاعلى ظاهر نسبة الاهازيج الى نفس العالم . ويحتمل ان يريد بأزهازيج العالم أهازيج اهل العالم وصحة نسبة اهازيج اهل العالم الى العالم من المجاز الشايع. وعلى هذا فأن ملايين العالم بعد ان كانوا في سبات فأهازيجهم اهازيج النائمين والنائم ليس يدري ، ولعل المراد من اهازيج اهل العالم هو ماانصرفوا اليه وانعكفوا عليه من الانغمار في الدنيا وما يدور في اوهامهم من التشكيكات والتخيلات .

***

(٢٨)

إن مضى يمخر امسى في عباب مزبد
فلقد أفعمت يومي من أهازيـج غدي
وسأمضي حيث أمضي في طريق الأبد
هادىء الفـكرة في ظل زمان
ليس يدري

يشرح في هذا الدور حال نفسه وما هو عليه فيقول : ان مضى يمخر امس بما فيه من متلاطم امواجه ، واصطدام حالاته وتغيراته من تقلبات واختلافات فاني في يومي الذي انا فيه ملأنه من اهازيج الغد ، والظاهر انه هـو عالم مابعد الدنيا كما اشار اليه في المصراع الثالث بأنه سوف يمضي في طريق الابد والخلود وهو هادىء الفكرة في ظل زمانه الذي ليس يدري بذلك .

(٢٩)

أنا لو فكرت فيما دب حولي ودرج
وبما يملأ كوني من ملايين الحجج
لتبينت الشواطي ، وتعـــرفت اللجج
وتساميت كما شئت الى ما
ليس يدري

يقول : لو انا فكرت وتصورت ماحولى مما يدب ويدرج وكله دلالات واضحة على ان العالم بكله موهوب وجود من الواجب تعالى ومسير بقضائه وقدره ، كما اشار الى ذلك بالمصراع الثاني . وحاصله ان تفكيره بما دب حوله ودرج هو تفكير بما يملأ كيانه من ملايين الحجج التي يترتب عليه انه يعرف الشواطي ويعرف اللجج ، اي يعرف مالا يغرق فيه فيسلكه وما يغرق فيه فيتجنبه ، ولتسامى بعد التعرف الى مافيه النجاة كما يشاء ، ناجياً من التبعات مرتفعاً بمعارفه الى منازل العارفين ومقامات الصالحين ومعارج المقربين وهذا مما لايدري بها من قال لست ادري

(٣٠)

أنا إن أجهـل نفسي فبماذا أنا أعلم

وأرى كـل وجود لوجودي يتجهـم

أحجم العقل وكم قد أقدم العقل واحجم؟

فتراه وهو المدرك يغدو

ليس يدري

الظاهر من المصراع الاول من هذا الدور هو التعرض لمن قال : انا لا اعلم من اين ولكني اتيت فأنه قصر علمه على انه اتى فقط فهو يجهل من اين اتى وكيف اتي ولا ينبغي له ان يقول ذلك لان العلم ينير له من من اين اتى وكيف اتى . فأنه ممكن بالضرورة والممكن يحتاج الى واجب الوجود والا لاستحال ان يوجد ممكن اصلا ، فينبغى له ان يعلم انه قد جاء لهبة واجب الوجود وجوده له ، ولا ينبغي له ان يجهل كيف اتى ، بل ينبغي له ان يعلم انه جاء منتقلا في اطواره لابساً وجوداً فوق وجود من الجمادية الى النامية الى الحيوانية الى الانسانية ، سيره القضاء ودبر حالـه القدر ، وكلما استعد الى وجود افاضة عليه واهب الوجود كما مرت الاشاره الى بعض ذلك في الادوار السابقة ، فلا ينبغي للشخـص ان يجهل نفسه ، واذا جهل نفسه وحالها واضح لديه . فبما اذا يمكن ان يعلم ، وقد وردت الاشاره الى لازم هذا المعنى في الحديث النبوي - من عرف نفسه فقد عرف ربه - وهذا الحديث المبارك وأن كانت دلالته

المطابقيه عكس هذه القضيه تقريباً وأن علم الانسان بنفسه يلزمه العلم بربه الا آن الاشياء كما تستفاد ممايدل عليها بالمطابقة تستفاد ايضاً مما يدل على مايلازمها وعلى كل حال فأذا جهل نفسه فلا يستطيع ان يعلم من وجود غيره شيئاً لبداهه ان يكون بوجود غيره اجهل منه بوجود نفسه ولذا قال : في المصراع الثاني بأنه يرى كل وجود يتجهم لوجوده والتجهم كناية عن الغموض ويقول : في المصراع الثالث احجم العقل وكم قد اقدم العقل واحجم . يمكن ان يريد جنس العقل فيكون المتحصل منه ان افراد العقول متفاوته فرب عقل يحجم وكم هناك من افراد العقول تتقدم وتتوصل بالبحث الى النتائج الصحيحة الثابتة ، ويمكن ان يريد بيان اختلاف حالات العقل الواحد ، فأنه ربما يحجم عما لو بحث عنه لوصل اليه ، وربما يقدم على البحث فيصل الى ماينبغي ان يصل اليه ، ومن المعجب ! في امر العقل انه قد يحجم عن المدارك السهلة التناول ويقدم على المدارك الصعبة العميقة المغزى والبعيده الغور ، والاحتمال الاخير لعله اظهر في الدلالة من الاحتمال الاول لقوله : في المصراع الرابع فتراه وهو المدرك يغدو ليس يدري ، فأن الظاهر منه ان المدرك بنفسه هو الذي يغدو ليس يدري :

(٣١)

أنا من لامع هذا النور ادركت الظلام

وتبينت بيومي السر من مليون عام

فإذا المرء رفات وإذا الصرح رجام

وإذا الاول كالآخر فيه

ليس يدري

يريد من لامع هذا النور عصره الحاضر الذي يشاهده ، ومن الظلام العصور السابقه على عصره ، فمن جهة انها غير مشاهده له عبر عنها بالظلام ، ويدل على هذا تقريباً بصراحة المصراع الثاني لانه يقول : انه يتبين من يومه السر من مليون عام قبله لان حكم الامثال سواء ، ثم يذكر مظهراً لتساوي العصور فأنها كلها ينتهي المرء فيها الى رفات ، وتخر صروحها منهده ، فتعود حينئذ رجاماً . يكون من كان في العصر الأول كالذي في العصر الآخر وكل منهما مغمور في عالم دنياه وهو ليس يدري عما سواه .

(٣٢)

كم كنوز أصحر العالم عنها ومعادن
وشئوون سوف تبقى في يد الغيب رهائن
ما أميطت حجب عنها ولا حرك ساكن
شاءت الحكمة ان تبقى ليبقى
ليس يدري

ليس في هذا الدور مايحتاج الى الأيضاح وهو بجميعه واضح لاسترفيه فانه يلفت نظر الناس الى ماأودعه الباري تعالى في هذه الأرض من كنوز وذخائر قد كشف بعضها العلم الحديث ، كامثال النفط والكهرباء والذرة وغيرها مما وصل اليه العالم المتحضر ، وبقى الكثير مرهوناً بيد الغيب لم يمط عنها حجاباً ولا اظهر منها سرا ، ولا حرك ساكنها انسان ـ وما اوتيتم من العلم الا قليلا ـ فقد شاءت حكمة الله جل شأنه ان تبقى هذه الشئون خفية كامنة خلف حجب الغيب ليقر الأنسان بجهله ويشعر بنقصه ليبقى ليس يدري .

(٣٣)

لا أرى فرعون موسى ، لا ولا ابليس آدم
سلبا عـالم نفس أو أعاداها لعـالم
نزعات النفس منها وحدها ، فهي تحاكم
هي ظل الخير والشر على من
ليس يدري

خص بالذكر هذين الشخصين فرعون موسى وابليس آدم لبيان اشهر شخص في الطغيان والتجبر ، واعظم شخص في المكر والاغواء ، فهما وان كانا على ماهما عليه من الظلم والفتك والمخاتلة والمخادعة الا انهما لا يستطيعان ان يسلبا عالم نفس ولا ان يعيداها لعالم ، والمراد من سلب عالم نفس واعادتها يحتمل وجهين .

الاول ان هذين على مهما عليه من القدرة ولكنهما عاجزان عن سلب النفس عن العالم ، وعن اعادتها للعالم . وهذا جار مجرى قوله تعالى : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومرجع هذا الى انهما عاجزان عن ان يميتا نفساً او يحييا نفساً ، اما عجزهما عن الاحياء فمما لاريب فيه ، واما عجزهما عن الاماته ، فغاية مايستطيعان هو الاعداد لمفارقة النفس للبدن ، امانفس قبضها فهو بيد من احياها كما قال الله عز وجل الله يتوفى النفس حين موتها .

الثاني ان المراد من سلب عالم نفس وأعادتها هو التعرف في عوالم

من شكها وقطعها وتخيلاتها ومعقولاتها وحبها وبغضها وسائر مالها من امثال هذه الموجودات في افق النفس ، فمن الواضح جداً انه لاتستطيع نفس مهما اوتيت من قدرة وسلطان ان تتصرف في موجودات افق نفس اخرى مهما بلغت من ضعف ووهن ، فلا تستطيع ان تجعلها تلائم مالا يلائمها ، وتقبل على ماليس له قبول عندها فلا تقدران تسلبها مايلائمها ولا ان تعيدها قابله لما لاقبول له عندها ، ولا ان تعتقد مالا تعتقده ولا ان تهوى مالا تهواه ، وانما النفس بنفسها هي القادرة بحسب نزعاتها وتقلبها في موجودات افقها على ان تقبل على شيء وتعرض عن آخر ، بل ربما تقبل على شيء في وقت وتعرض عن آخر في وقت وربما تعتقد به في زمان وتنكره في زمان آخر ، وربما تكون كافره عاصيه في زمان ومؤمنه مطيعه في وقت آخر . فهي منقادة لنزعات نفسها لا لغيرها مهما بلغ من السلطان والجبروت والأغواء والمخاتلة ، وقد خولها الله القدرة الكاملة على ذلك ، فهي ذات السلطان على ان تكون حيوانية مضطربه كافره ، وان تكون عقلانيه مطمئنة مؤمنة كما قال : عز من قائل - انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفورا - وهذا المعنى الثاني اقوى ارتباطاً بالمصراع الثالث حيث يقول : نزعات النفس منها وحدها فهي تحاكم بحسب ماأثرت عليها نزعاتها على روية منها واختيار ، ولذا بحسب قانون العدل ان تحاكم بنفسها ولو كان السالب لها غيرها بحيث لايتوسط بينهما اختيارها لما صح بحسب قانون العدل ان تحاكم ، وقد صرح بهذا تقريباً في المصراع الرابع لانه قال :

هي ظل الخير والشر على من ليس يدري ، لأن شرها الملائم لشهواتها

وانغمارها في عالم الدنيا هو الحاجز لها عن التبصر والتدبر وان لاتقف عند اوهامها وتخيلاتها وان تتبع غراب شهواتها ليقودها الى الاجرام والمآثم .

* * *

(٣٤)

قلت إذ جاشت سموماً ليت لي نفس وديعه
ليتها لم تتحفز فوق أثباج الطبيعه
هي لحن الملأ الاعلى ومزمار الشريعه
وهي رمز للشك والحيرة فمن

ليس يدري

يحلل في هذا الدور نزعات النفس في طريقي الخير والشر فيتمنى اذ تجوش نفسه وتطلب ان تكون ذات شأن في هذا العالم ان تكون نفسه هادئة وديعة ، لما في توثبها وطلبها ذلك من الخطر الذي يستلزم غالباً الظلم وانتهاك الحرمات ، فتكون ظل شر على ذاتها ويتمنى ايضاً ان لاتتحفز راقصة فوق اثباج الطبيعة ، لعين ماذكرنا في سبب تمنيه لأن تكون هادئه وادعه ، ثم ذكرانها ان توجهت الى المعارف الا لاهية الى والاتصال بأخلاق الملاء الأعلى من الملائكة المقربين والى اتباع هداه التبليغ والارشاد والوصول الى ان تكون من اهل اليقين وعلم اليقين ، فأنها حينئذ تكون ظل خير لذاتها وملتحقه بمن يدري ، ولا بد ان تعود مردده للحن الملأ الاعلى وصادحه بأنغام مزمار الشريعة وان توجهت الى الدنيا وظلمات غمراتها وما فيها من الشك والحيرة كانت ظل شر على نفسها وتلتحق بركاب من ليس يدري :

(٣٥)

فيك يانفس كما في الكون نور وظلام

انت حرب وسلام ، وهو حرب وسلام

كلما ساد نظام فيك يندك نظام

أو ليست وحدة العدل اقتضت ما

ليس يدري

توضيح هذا الدور هو المقارنة بين النفس والكون ، فكما ان في الكون نور وظلام يتبادلان نهاراً وليلا كذلك للنفس نور كنور اليقين المشرق المتبلج ، ولها ايضاً ظلام الشك الحالك المغمور ولها نور الخلق الفاضل المطمئن لها ايضاً ظلام الخلق الغاشم المتوثب ولها نور المعرفة الصائب ولها ايضاً غسق الشبهه الخابط ، ولها نور العلم وفضائله لها ايضاً ظلام الجهل ونقائصه . فللنفس كما للكون نور وظلام ، ولكل منها آثاره ونتائجه وكما للكون حرب وصراع على الغلبة والسيادة او لأشباع اللذات والشهوات او للمال والثراء أو غير ذلك من شؤن الانغماس في المادة ، له دعة وسلام بين العقلاء العارفين وهناء ورخاء للراضين القانعين والاخاء والوفاء لمن نزع الغل من صدورهم وانهم على سرر من الصفاء متقابلين ، كذلك للنفس بنفسها مثل هذا فأنها لها حرب وصراع فيما اذا زاحم فيها مايقتضيه نزعات الشهوة وما يقتضيه الركون من التعقل والتدبر ، وتكون في حرب اذا تغلبت الشهوه ، وفي سلام اذا تغلب فيها جانب

العقل ، ولها حرب وصراع اذ تقابل فيها سورة الانتقام للغضب ، وهدوء السكينة الى العفو للحلم والسلم ، وهي محاربة اذ انجرفت للغضب ، ووادعه ذات سلام اذا انصاعت الى الحلم ، وتهب ايضاً طامحه الى الحرب والكفاح اذا استطارتها شرارة الشر ، ومطمئنه وديعه اذا استجابت لداعي الخير فللنفس كما للكون نور وظلام ، وحرب وسلام ، ولما كان لكل واحد من هذين الصفين المتقابلين نتائجة وأثارة ، فلا محاله اذا ساد نظام يندك النظام الآخر اذ لايعقل اجتماع المتقابلين في آثارهما ولذا قال : كلما ساد نظام فيك يندك نظام ولقد اقتضت وحدة العدل ذلك اذ ليس من العدل ان يجعل للظلام آثار النور ، ولا للشر آثار الخير ، وهذه النكته هي التي خفيت على من ليس يدري فيسئل متردداً في جملة من ادوار الطلاسم عن سبب ذلك .

***

(٣٦)

لك كالشمس على الكون طاوع وأفول

أنت نفس الكون إن صح اتحاد وحلول

أشرقت فيك عقول مثلما ضلت عقول

وعلى قارعة الشك جثا مـــن

ليس يدري

يستعرض في هذا المصراع المقارنة بين النفس والشمس ويقول : ان النفس كالشمس لها طلوع وافول ، فهي في افق اهل اليقين العارفين مشرقة طالعه ، وفي افق اهل الجهل الفارغين غائبة آفلة ، ثم ان النفس لما كانت هي الفاعل في الظاهر المدبر لجميع التصرفات في هذا الكون فهي العالمة وهي الحاكمة وهي العاملة وهي المخترعة وهي السائسة وهي المدبرة وهلمجرا ، وغيرها من غير ذي الشعور تحت رحمتها وعنايتها ، تتصرف فيه كما تشاء . هذا مايظهر من المصراع الاول .

واما المصراع الثاني وهو قوله : (انت نفس الذات الى اخره) فيحتمل وجهين .

الاول : انه يمكن ان يشير به الى مسئلة تعلق النفس بالبدن وان التركيب بينهما هل هو انضمامي كما يراه قدماء الفلاسفة . او انه اتحادي كما يراه السيد السند ومن بعده من الحكماء ، وعلى ضوء الراي الثاني ذهب صدر المتألهين الى ان النفس جسمانية الحدوث روحانية البقاء ، وعلى

هذا الاحتمال فالذي يراه شيخنا الوالد هو التركيب الاتحادي بين الذات والنفس كما هو ظاهر قوله : انت نفس الذات ان صح اتحاد وحلول ، فالنفس حينئذ في مرتبة الابصار باصره ، وفي مرتبة الذوق هي الذئقة ، وهلمجرا وهي كما قال الحكيم السبزواري في منظومته - النفس في وحدتها كل القوى - وقد قسمها الى اقسامها الثلاثة في المصراع الثالث والرابع كما سنشير اليه .

الوجه الثاني انه يمكن ان يكون مراده من اتحادها مع الذات هو اتحادها مع الكون ، وان الكون هو نفس الذات ويصح حينئذ ان يقال ان الكون هو النفس اذ لولاها لما حصل أثر ، وما تحرك حجر عن حجر ولما كان المعلول رشحه من العلة ولذلك قال قوم : لم يتبينوا الحدود الفاصلة بين الممكن والواجب من الحدوث والقدم ، والفقر والغنى ، والامكان والوجوب بوحدة الوجود والموجود ومن هذا نشأت ضلالات الالحاد والحلول ، حتى انه لايكاد ينقضي تعجبي ! ! لما رأيت صاحب المنجد يفسر المسيح بالأله المتجسد ، وتقاربه عبارة صاحب اقرب الموارد . وعلى كل حال فلما قال : في المصراع الثاني انت نفس الكون فحمل الكون على النفس ولازم الحمل الاتحاد بين المحمول والمحمول عليه علق صحة هذا الحمل على صحة الاتحاد والحلول ثم جعل لها عقولا ثلاثة ، عقل مشرق ، وهو عقل العلماء الواصلين ، وعقل ظال مظلم كما تقتضيه المقابلة وهو عقل الجهلاء الضالين المتجاهرين بعقائد الضلال ، وعقل واقف بينهما على قارعة الطريق ، وهو عقل الشاكين المترددين ومنهم من ليس يدري ويقول لست ادري .

(٣٧)

أنت كالموجة تنحل بأخرى وتذوب
أنت كالمرآت تصدين إذا تصد القلوب
لك مثل الدهر عندي حسنات وذنوب
أنت حيرت أخا اللب فأضحى
ليس يدري

تعرض في هذا الدور الى تطورات النفس وانقلابها ، فتنقلب من الجهل الى العلم ، ومن الشك الى اليقين ، ومن البغض الى الحب ، وهكذا ويشبه هذه التطورات النفسية بالامواج التي تنحل بعضها ببعض فيما اذا ارتطمت موجة بموجة ، فتنغمر احداهما بالأخرى فتضمحل فيها . ويتصور النفس كمرآة تنعكس فيها الصور الماثلة في القلوب ، ومن التعابير المتعارفة السائدة اعتبار القلب مركزاً لهذه الصور . والا فعند التحقيق ان مركز التفكير وانواعه ، من اليقين والشك والوهم هو الدماغ والعصب الحساس الموجود فيه والتجاويف المنبثة في جدرانه . وعلى كل حال فلما كانت هي المرآة التي تنعكس فيها هذه الصور ، فهي تابعة طبعاً للقلب الذي يخلق الصور مقابلة للنفس لتنعكس فيها ، والتابع بحكم التبعيه يسرى اليه مافي المتبوع ولذا لما كانت النفس تابعة فلا محالة تصدأ اذ صدأت القاوب ، وتكون صافية جلية اذ صبغت القلوب وانجلى عنها صدؤها ثم يقول : لك مثل الدهر عندي حسنات وذنوب ولقائل ان

يقول : إنه بعد ان جعل النفس مرآة للقلوب فالحسنات حسنات القلوب والذنوب ذنوبها ، فما ذنب المرآة حتى يضيف اليها الحسنات والذنوب . ولكن التحقيق المحقق في فنه ان النفس في وحدتها كل القوى ، والاعضاء الحساسة وغيرها هي كآلات وعمال تدير عملها كلها النفس ، فالنفس هي الباصرة ولكن بآلة البصر ، والنفس هي السامعة ولكن بآلة السمع ، والنفس هي المفكرة ولكن بآلة التفكير . واستناد فعل المعلول ومعلوله الى علته اولى من استناده الى المعلول .مثلا ان حركة الافلاك بتأثيز الجاذبية واستناد حركة الافلاك الى الله تبارك وتعالى اولى واقوى من استنادها الى الجاذبية لما ثبت عند الحكماء من ان المعلول رشحة من العلة فالرشحة الأولى يكون تاثيرها اقوى من المعلول الأول على المعلول الثاني كما اشرنا اليه في الدور السابق ، فحسنات القلوب وذنوبها مستندة الى النفوس استناداً حقيقياً صحيحاً ، ولما كان صدؤها ذنبها ، وجلاؤها حسنة لهـا كان لهـا عنده حسنات وذنوب . وأما ان الدهر له حسنات وذنوب في مسراته ونكباته فأمر واضح في غنى عن البيان . ثم خاطبها بأن حيرة اخي اللب تعود اليك ، فاضحى هذا الشاعر المفكر والأديب المفلق المتغور من جرائك في حيره ، لايدري ولا يعلم من اين جاء ولا الى اين يذهب ، ويبحث عن هداه فلا يجده لا في بحر ولا في بر ولا في كوخ ولا في قصر ولا في دير ولا في قبر .

(٣٨)

لك من أسمى صفات الملأ الأ على صفات

لك من جوهر قدس العالم العلوي ذات

أنت رمز النور لكن أنت رمز الظلمات

انت بلبلت بلك العقـــل فاضحى

ليس يدري

يشير في هذا الدور الى ما اوتيت النفس من قدرة واستطاعة ، فأنها تستطيع ان تصل الى الافق الاعلى في المعرفة ، بحيث يكون لها ما للملأ الاعلى من الملائكة المقربين من الصفات القدسية والمعارف الالهية ، وتكون ذاتها كذوات الجواهر المقدسة الفانية في طاعة ربها ومرضاته . بل ربما بوسعها ان تعلو على الملائكه قرباً من الله كما هو اعتقادنا في النبي محمد صلى الله عليه وآله وفي الأئمة المعصومين (ع) كما تدل على ذلك الآثار الواردة عنهم عليهم افضل الصلاة والسلام ، فأنهم رمـــز النور ، وباب الله الذي منه يوتى ، وليس رقيهم الى هذه المنزلة بقسر قاسر ، وانـما هو بفضل نور معرفتهم ، وكمال طاعتهم ، وعظيم تضحيتهم في سبيل الله والمروى عن سيد الشهداء (ع) يوم الطف يدل على مايقتضي ذلك فانه بعد أن قال عليه السلام

((الموت أولى من ركوب العار . قال : العار اولى من دخول النار))

فأنه لما كان تكليفه انقاذاً للأمة وانكاراً للباطل ، وما عليه من سيرة

ائمة الظلم ، وان ذلك لايتم الا بقتله وقتل آله واصحابه ، وهو يعلم وطبيعة الحال تقتضي ذلك انه متى قتل سبيت عائلته وذراريه ، وهو امر يعز على من هو دونه من ذوي الشمم والغيرة ، فكيف عليه ، ولكنه مع ذلك توطن عليه وان هذا وان كان عاراً يهون دونه الموت الا انه اولى من ارتكاب مالا يرضى به الله مكنياً عن ذالك بدخول النار وعلى كل حال فالنفس كما انها تستطيع ان تكون رمز النور بما يتم عندها من المعارف ، كذلك باستطاعتها ان تكون رمز الظلمات بانغمارها في الشهوات وشؤون المادة واندفاعها الى الاوهام والشبهات والتشكيكات ، وفي عين الوقت لو جاهدت لوصلت الى سعادة اليقين والتخلق بأخلاق المؤمنين ، كما قال : عز من قائل .

((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)) ثم لا يخفى ان النفس الناطقة قبل ان تكون مجردة كما اقام الباحثون ادلة كثيرة على ذلك ، فيما اذا صارت ـ عقلا بالمستفاد ـ مدركة للكليات . فانها قبل هذه المرتبة هي الصورة وهي الفصل ، والفصل بسيط ، وغير المركب لايمكن معرفة ماهيته على التحقيق . لأن المعرفة منحصرة بتحليل اجزاء الشيء ، وبذلك التحليل يعرف ذلك حقيقة وانه مركب من الجزء الفلاني والجزء الفلاني . اما مالا تركيب فيه فلا اجزاء له فلا يمكن معرفته ماهيته على نحو الحقيقة . نعم غاية مايمكن ان تعرف البسائط بالرسم ، وهو تعريفها بصفاتها وآثارها . فالنفس قبل ان تصل الى مرتبة التجرد لايمكن معرفة ذاتها ، لانها من البسائط ، وبعد ان تبلغ مرتبة التجرد فهي اشد بساطة حينئذ فأولى ان لاتعرف حينئذ على وجه الحقيقة . لأن الشيء كلما بعد

عن التركيب اشتدت بساطته ، ومرتبة التجرد ابعد عن التركيب من مرتبة كونها جزء من المركب . هذا حال النفس من حيث ذاتها وما هيتها ، واما من حيث تطوراتها فهي غامضة ايضاً ، لأن الشيء كلما كثر فيه التطور والتقلب اشتد ابهامه ، ولا شيء كالنفس مختلف الاحوال والاثار فانها مع كونها واحدة ذاتاً متحدة مع كثير ، وهي القوى التي تديرها وتعمل موجهة بتوجيهها . وهي مع البصر بإصرة ، ومع السمع سامعة ، ومع الشم شامة ، ومع ادراك المعقولات متعقلة ، ومع ادراك التخيلات متخيلة ومع العلم عالمة ، ومع الجهل جاهلة ، ومع الحب محبة ، ومع البغض مبغضة ، وهكذا ولذا قالوا : ان النفس في وحدتها كل القوى فهي من حيث ذاتها غامضة ، ومن حيث آثارها وصفاتها غامضة ايضاً ، ولذلك خفي امرها عند بعض العقول وتبلبلت بها فأضحى ليس يدري من امرها شيء ، ولم يجدها عند من يسأله عنها فهو لايزال يسأل عنها ، فلا ينتهي لمجيب يكشف له حقيقتها ، ولذلك يعود فيقول لست ادري .

(٣٩)

انت يامطلع شمس العقل من افق الوجود
وردة الحقل وملء الحقل شوك وورود
كيف حدوك وقد ساخت بمعناك الحدود
فتدافعت مع الدهر الى ما
ليس يدري

هذا الدور عاد واضحاً بعدما اسلفناه في بيان الدور السابق . فأن النفس لما كانت في مرتبة التعقل هي العاقلة صح ان تكون هي شمس العقل فيما اذا انتهت في ابراز صور المعقولات المنيره للرشاد ، وهي فيما اذا استنارت بمعارفها اتصلت بنور الحق والوجود المطلق ، ويكون طلوعها بمداركها المشرقة بالعرفان طلوعاً من افق الوجود المطلق ، وتفصيل ذلك موكول الى محله في (علم السير والسلوك)ثم قال : هي وردة الحقل وملء الحقل شوك وورود .

يحتمل ان يريد من الحقل حقل الكون ، والورود فيه هي جنس النفوس التي فيها النفوس الخيرة المطمئنة الراجعة الى ربها راضية مرضية والشوك فيه هي النفوس الشريرة الضالة الشائكة في اخلاقها وتصرفاتها .

ويحتمل ان يريد من الحقل هو المسرح الذي تتمثل فيه النفس وردة ناصعة مشرقة اذا ازدهت بنور الشكر والايمان ، وشوكة ضارة مظلمة اذا انغمست في ظلمات الشهوات والعصيان ، فهوت سالكة نحو الكفر والطغيان وهاتان الحالتان كثيراً ماتتبادل على النفس الواحدة . فتكون تارة وردة

وآخري شوكة ، وربما كان المعنى الثاني اربط ظاهراً بالمصراع الثالث ، لأن النفس لما كانت في حد ذاتها غامضة ، وفي افعالها ومداركها جامعة بين المتنافيين ، وهو مما يسبب غموضها ايضاً . لذلك قال : « كيف حدوك وقد ساخت بمعناك الحدود » فهي لاتزال متدافعة بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والكفر والايمان ، والاطمئنان والطغيان ، فهي كالدهر والكون المشتمل على كل ذلك . وهذا التدافع في النفس هو الذي سبب ان يجهلك من جهلك . فأنت انتهيت به الى ماليس يدري فأضحى يردد لست ادري لست ادري .

***

(٤٠)

انت يارشحة فيض العـــلم بحر مغدق
مـترامى الموج ، لا يمخر فيه للـزورق
خاضه قوم ، وقوم فى الشواطي غرقوا
غير ان الكل ما خلف الشواطي
ليس يدري

الخطاب في كل ماقال : (انت موجة الخ) الى النفس . ويبين في هذا الدور ماللنفس مـــن الكيان الواسع ، والافق البعيد ، والغور العميق وما هي عليه من هوج عواصفها وترامي امواجها ، فهي بحر مغدق مترامى الامواج . وبطبيعة الحال ان البحر العظيم لايستطيع ان يمخر فيه الزورق وهو صغير ، ومن الواضح ان البحر الواسع العميق المغدق المترامي بأمواجه لا يستطيع أن يخوضه كل احد ، لأختلاف الخائضين وتفاوتهم . فبعض يغرق في شاطئه ، وبعض يقوى على خوض عبابه ولا يغرق فيه ، امـــا كونها بحراً مغدقاً فذلك مما لايحتاج الى بيان ، فأن النفس مع انها جوهر واحد لها من مراتب التشكيك من الشدة والضعف مالا يكاد ينتهي الى حد . فبملاحظة ذاتها الجامعة لهذه المراتب الكثيرة فهي بحر مغدق ، وبحسب اختلاف الباحثين فيها وتفاوتهم كان بعضهم يغرق في شاطئه وبعض يخوض غمراته ، وأما كونها رشحة من فيض العلم فلان علم الممكن مهما بلغ من السعة فهو محدود كرشحه ضئيلة بل اقـــل من الرشحة

بالنسبة الى علم الواجب غير المحدود الواهب الوجود للممكن بجميع قواه وامكانياته كما قال : عز من قائل (وما اوتيتم من العلم الا قليلا) .

واما قوله : غير ان الكل ماخلف الشواطى يحتمل وجوها :

الاول : ان من نراه يغرق بالشواطي ومن نراه يخوض انما هو بحسب النظر المسامحي ، اما بحسب التحقيق فالكل خلف الشواطي . لأن كل من غرق ومن خاض لم يصلوا الى شيء اصلا ، ولم ينكشف لهم ابداً ماعليه النفس من الغموض الذاتى والصفتي ، فلذا صح ان يقال ان الكل خلف الشواطي ،

الثاني : ان المراد من الكل خلف الشواطي هو بملاحظة ان من خاض وان وصل الى شيء ما الا انه بحكم العدم بالنسبة الى كثره ماللنفس من الحدود والشواطي ، فلذا كان الكل خلف الشواطي .

الثالث : ان المراد من الشواطي هي شواطي العلم الحقيقي الثابت عند المجردات او الواجب جل وتعالى علمه ، وهل يمكن ان يصل الممكن المحدود بالمادة الى علم من فوق المادة فكما لايقدر ان يصل الحيوان غير ذي النفس الناطقة الى علم ذي النفس الناطقة ، كذلك لاتستطيع النفس الناطقة المحاطة بالمادة ان تصل الى علوم المجردات وقوله : ليس يدري يمكن ان يريد به الكل الواقف خلف الشواطي ، فانه لايدري ويمكن ان يريد به من قال لست ادري ، فأنه لايدري ان النفس رشحة فيض العلم ، وما هي عليه من كونها بحراً مغدقاً الى آخر ما اشار اليه في مصاريع هذا الدور

(٤١)

انت يارمز حـدوث الـعالم المزدهر

مصدري مهما ترامى بوجودي مصدري

او توارى الغد كنت حيث كنت مجهرى

فستمضين ويبـقى للفنا مـن

ليس يدري

المصراع الاول من هذا الدور يحتمل وجهين :

الأول ان النفس انما كانت رمزاً لحدوث هذا العالم لأنها اقوى وجوداً من بقية مافي العالم ، فأنها هي المتصرفة فيه ، وهي التي وقفت عـلى مافي العالم من العجائب والاثار ، فكشفتها واستخدمتها في مصالحها ، وهي التي انفتح لها باب العـلم فوصلت الى ماوصلت اليه مـن غرائب الاختراع ، وهي التي اسست المجتمعات وفرقت المجتمعات ، وهي التي كتلت الكتل وقسمت الدول ، ومنهاالحرب والسلام ، وهي المديرة لدفة مافي العالم بكله ولذلك كانت اقوى وجوداً من بقية مافي العالم . وهـي بذاتها حادثة لانها لم تكن فكانت ، لما مر في الادلة السابقة مما يدل على حدوثها واذا كان الاقوى وجوداً في العالم حادثا ، فالأضعف اولى بالحدوث . فلذا كانت رمز حدوث العالم .

الثاني : ان المراد من كونها رمز حدوث العالم انها هى التي ادركت

وتوصلت بالبراهين الى اثبات حدوث العالم ثم قال .

مصدري مهما ترامى بوجودى مصدري ، المراد من كونها مصدراً له انها هي التي بها يصدر الى المعرفة واليقين وازالة ظلمات التشكيك والشبهات ويشير الى بعض ماتكشفه النفس وينتهي بحثها اليه هو معرفة عالم الغد ، وما يكون عليه الشخص بعد الانتقال من هذا العالم ، ولما كان معرفة ذلك خفية غير واضحة ، يحتاج الى كاشف موضح له ، شبهها بالموجودات الدقيقة التي لاترى بالعين المجردة ، وانما بالمجاهر الكاشفة لها والمجهر لهذه المعرفة الخفية هي النفس .

وبعد ان توصل بالنفس الى حال عالم الغد قال فستمضين الى ذلك العالم ، وقوله : ويبقى للفناء من ليس يدري يحتمل وجوهاً .

الاول : ان من لم يتوصل اليه من اليقين بعالم الغد وهو من ليس يبقى في هذا العالم بانياً على انه ينتهي امره بفنائه وموته ، لأنه لم يتوصل الى اليقين بوجود عالم غير هذا العالم .

الثاني : ان المراد من بقاء غيرها للفناء انها تمضي واثقة بالعالم الذي يتنقل اليه ويبقى غير الواثق وهو من ليس يدري لأن يفنى ويلتحق بها .

الثالث : ان براهين الانتقال الى العوالم الاخرى مما في هذا العالم تختص بخصوص الموجودات المدركة في هذا العالم ، على خلاف في اختصاصها بخصوص العاقلة منها ، او تعم كل ذي ادراك وان كان ناقصاً كالحيوانات ، اما بقية مافي هذا العالم من جماد او نام فلم يجد

البراهين على انتقالها بعد فنائها طريقاً علمياً ، وعلى هذا فمراده ممن ليس يدري على هذا الوجه .

الثالث هو غير ذى الشعور ، بخلاف الوجهين الاولين فأن مراده فيهما ممن ليس يدري هو من قال : لست ادري ، ولكن هذا الوجه بعيد

* * *

(٤٢)

انت لحن ترجمته نغمة الشادي الطروب
وصدى قد رددته موجة البحر الغضوب
واريـــج عبقـــت فيه شمـــال وجنـوب
حيث تزجيه يـــد الحق ولـــكن
ليس يدري

يشير في هـذا الدور الى جهات ثلاثة من جهات اخـلاق النفس وتطوراتها فمن جهة ملكاتها المسرة المبهجة كاخلاقها المحموده ، وعلومها الصحيحة ، ومعارفها التي هي من اعظم اللذات التي تطرب بها جـماعة السالكين والعارفين ، جعلها لحناً تترجمه وتعبر عنه نغمد الشادي الطروب فلها من هذه الجهة نغمة كنغمة الشادي الطروب .

ومن جهة زجرتها وتوثبها في حالة غضبها ، وطغيانها وعتوها تندفع هذه الاعضاء المتحركة بسائق يسوقها الى الاعمال التي تقتضيها هـذه النزعات ، من الظلم والفتك والاخافة والارهاق ، في الضعفاء المنصبة على رؤسهم آثار هذه الحالات لذلك جعل لها صدى تردده موجة البحر الغضوب ، فكأن البحر في هياجه وطغيانه ، والصوت المخيف المرعب ، الحادث من تلاطم امواجه ، يمثل صدى النفس الغاضبة العاقية الطاغية ولذا قال : ان النفس كما لها نغمة الشادي الطروب لها من جهة اخرى وتطور آخر صدى تمثله وتردده موجة البحر الغضوب ومن جهة آثارها

الخيرة ، واعمالها الصالحة النافعة ، لعامة الناس كعدلها وانصافها ، وعفوها وتواضعها واحسانها ومعروفها . لها ما للشذى المتأرج والعبق الطيب الذي يرتاح له كل من شمه واستنشقه ، جعل لها نفحاً طيباً واريجاً عبقاً تتقاذفه الشمال والجنوب . ولما كانت هذه الاخلاق الصالحة الطيبة المرضية تصدر غالباً عن النفوس الواصلة الى الحق والحقيقة ، اشار الى ذلك في المصراع الرابع بقوله : حيث تزجية يد الحق ولكن ليس يدري بـذلك من قال لست ادري .

* * *

(٤٣)

انت حبست حياتي في طريق موصد
انت حفزت ركابي عن ضفاف المورد
انت عقمت شعوري ، انت قيدت يدي
انت قد شئت بأن ابقى كغيري
ليس يدري

لما ذكر فيما قبل هذا الدور وفي بعض الأدوار السابقة ان النفس هي مصدر خير الانسان ، ومصدر شره ، ومصدر نوره ، وظلمته ، وسعادته وشقائه ، ذكر في هذا الدور ان حياتي اذا حبست في طريق موصد مغلق لايمكنها ان تفتح رتاجه وتنفذ منه واذا حفزت ركابه الى ترك ضفاف المورد ، الذي لو وصلت اليه وانتهلت من سلسله ومعينة ، لعادت مرتويه من المنهل العذب ، فكل ذلك يكون منك واليك . وايضاً اذا عقم شعوري ولم يتولد فيه النور الذي يهتدي به لهداه ، واذا قيدت يدي ولم تنبعث لصالح الاعمال ، فكل ذلك منك ، ولا سبب له الا انت فأذا فعلت ذلك كله فمعناه انك انت قد شئت ان ابقى كغيري محجوباً عن السعادة والخير ، محبوساً في مطبق الجهل . واكون كغيري حينئذ ليس يدري

(٤٤)

قد توغلت خفاء فتبرجت ظهورا

وتواريت وفيك اندلع العالم نورا

فهو يزداد ذهولا كلما ازداد شعورا

وهو ادرى بك لو أنصف لكن

ليس يدري

يستعرض في هذا المصراع من الدور وما بعده . ماعليه النفس من العجائب ، فأن النفس توغلت في الخفاء ، ولخفائها انكرها بعض وزعم ان النفس ليست هي الا تياراً كهربائياً ، يتموج في الدماغ ، وسخافة هذا الرأي واضحة اذ الكهرباء سواء كان مادة ام طاقة هو جماد كسائر الجمادات ، ومما لاينكره حتى هذا المنكر للنفس ان له ولكل انسان ادراك وتعقل ، ولابد للادراك من مدرك والالجازان يكون للجمادات ادراك وشعور ، وان لها تصور وتعقل ، مع تسليمه ليست بمدركة ولا متصوره ولا عاقلة ، وعلى هذا التسليم بالمعلول ، بما هو معلول وانكار العلة هو باطل ضروره ، وانما انكرها هذا المنكر مع انه لامناص له عن التسليم بآثارها ، ومعاليها لخفاء حقيقتها عليه ، وحتى المعترفون بها اختلفوا فيها من جهات أخر من جهة انها هل هي من انواع المادة ، او انها مجردة ، وحتى القائلون بتجردها . اختلفوا في انها هل هي روحانية

الحدوث والبقاء ، او جسمانية الحدوث روحانية البقاء ، على اقوال مفصلة في فنها ومحلها ، وهذا كله ناشيء من خفائها وتوغلها في الخفاء لعدم صحة هذه الاختلافات المفرطة ؛

في المباينة بين العلماء في الامر الواضح الجلي ، ومع ماهي عليه من التوغل في الخفاء ، فقد تبرجت ظاهرة الزينة بأثارها ، وابداعاتها واختراعاتها واختلافها وصفاتها ، فهي مع التوغل في الخفاء متبرجة بزينتها ظهوراً ووضوحاً . ويدل على ان مراده في المصراع الاول ماذكرناه ماقال في المصراع الثاني وهو قوله :

وتواريت وفيك اندلع العالم نورا . فأن النفس مع تواريها بذاتها وخفائها قد اندلع في العالم نورها ، فأشرق العالم بواسطتها ، بالعلم الذي ملأه نوراً وبها استطاع ان يطوي المسافات الطويلة البعيدة في الزمان القريب ، براً وبحراً وجواً ، وبها استطاع ان يحصل على الكلام من الاثير وينتزع الصور منه ، وبها استطاع ان يفجر الذرة ، فيبلغ بذلك الى مالاعين رأت ولا اذن سمعت وهو يحاول ان يبلغ السماء ويكتشف مافي نجومها واقمارها ، وبها استطاع ان يسمع من كان في القطب كلام من في القطب الآخر ، كان لم يكن بينهما الا قيد فتر او ذراع ، وهذ كله من نور النفس المندلع في العالم ، ويستلزم هذا الخفاء وهذا الظهور ان يزداد ذهولا فيها ، كل من ازداد شعوراً بها ، وكيف انها مع تمتعها بهذه القدرة وعظيم التأثير ، توغلت في الخفاء ، حتى انكر المنكر اصل وجودها ، ويزداد ايضاً ذهولا فيها الشاعر بنورها العظيم المندلع انها مااعظم قدرتها ، وابلغ تأثيرها ، واقوى سلطانها ، وانفذ

سيطرتها وينبغي لمـــن عرف منك هذا السلطان والتأثير ، وهذه القدرة والسيطرة ، ان يدري بك ويعرف ماانت عليه ، اذا حكم وجدانه وانصفه ولكنه مع ذلك كله ليس يدري لأنه قال لست ادري :

* * *

(٤٥)

كدت لا اسمع الا منك ياليلاي همسا

اذ تفوقت على العالم إدراكاً وحسا

كنت مرآتي ولما تكن المرآة نفسا

كنت نور العالم المظلم ، ولكن

ليس يدري

كان ينبغي ان يقول انا لا اسمع الا منك ياليلاي همسا ، لأن الشخص لايسمع الا من قبل نفسه ، ولا يبصر الا بها ولا يدرك الا بها ، وهي السامعة الباصرة المدركة فلماذا قال : كدت لا اسمع . ولعل الوجه في ذلك ان النفس غالباً هي بذاتها تبحث وتنقب وتنعم النظر سبراً وغوراً ووضعاً واستنتاجا . فتصل الى ماينبغي ان تصل اليه من الحق الواضح والامر الثابت . واخرى تكون كواسطة لاحضار مايدلي به غيرها من الحجج والبراهين الموصلة لذلك ، فتكون آخذة من نفس أخرى مكتسبة من غيرها العلوم والمعارف وفي هذا الحال لاتكون هي الهامسة بالحق والمشيرة الى الهدف والواصلة الى الغرض ، وانما هي كواسطة فلما كان الامر على (نحويين) لذلك صح ان يقول : كدت لا اسمع الا منك ، ولأن الوصول الى الغرض من جهة ذات النفس ابلغ في التصديق بالحق ، من الوصول الذي يكون بتأثير الغير ، ومن الواضح ايضاً . تفوق النفس على سواها من عالم الكون والفساد في ادراكها واحساسها ،

وهذا كتعليل للمصراع الاول وهو واضح . ثم تصورها كمرآة يتمثل فيها الادراك والأحساس الذي ينتهي فيه الى الحق او الى غيره . ثم استدرك ثانياً وقال : ولماذا لم تكن المرآة نفساً . وهذا الاستدراك هو الصحيح ، لأن النفس ليست مرآة لأنعكاس الاشياء فيها فأن النفس لو كانت مرآة فمن اذاً الموجد للصور فيها ، بل هي بنفسها المدركة والحساسة ، وهي الخالقة للصور التي توجد فيها ، سواء حقاً ام باطلا ، ولذلك بعد ان نفى ان تكون النفس مرآة اذن فما هي ؟ صرح بحقيقتها في المصراع الرابع بقوله : كنت نور العالم المظلم ولكن لم يدر بنورانيتك من قال لست ادري . والنفس النيره هي النفس المشرقة بمعارف بارئها ، وخالقها والا فهي بصورها وأوهامها متقلبة في ظلام دامس .

***

(٤٦)

لست ادري انا ظل ام على المرآة ظـل

أهو أصل لوجودي ؟ ام وجودي هو اصل

إن ظل الضوء ضوء ، وخيال للعقل عقل

ولسان الموجـد الموجـد كلـن

ليس يدري

يحتمل هذا المصراع وجهين .

الاول : انه قد تردد في امر النفس فهل هي ظـل لوجود الواجب جلت قدرته ، ورشحة من فيض نور فعله الاقدس . ام ان على المرآة ظل من حجاب الاوهام اقتضى هذا التردد .

الثاني : وهـو الاظهر انه متردد في ان النفس هـل هي بنفسها ظل لنفسها ، ومرجع هذا الى استناد وجود الممكن الى نفس ذاته ، وانه بأقتضاء من ذاته يترجـح طرف وجوده عـلى عدمه ، اوان وجودها هو لوجود خالقها ومكونها . كما يوضح هذ الوجه في المصراع الثاني الذي يقول فيه : اهو اصل لوجودي امووجودي هو اصل . وانما سلك في هذا الدور مسلك التردد . وهو اجل من ان يكون متردداً فى ذلك تمشياً مع الخصم ، ولذا اظهر رأيه جازماً فى المصراع الرابع . وانها ظل فيض الواجب الواهب للوجود الأمكانى ، بجميع مافيه . وعلى كل فقد جعل

الحال اولا مردداً بين ان يكون ذلك الظل من الوجود الماثل على هذه المرآة هو الاصل للوجود ام ان هذا الوجود الامكاني للنفس وغيرها من سائر الموجودات الامكانية هو الاصل في الوجود : وبين في المصراع الثالث معنى كون الوجود الأمكاني ظلا لوجود الواجب بقوله :

ان ظل الضوء ضوء ايضاً ولكنه ضعيف فان الفيء المنتشر في الأرض والامكنة عند اشراق الشمس بنورها القوي على مساحة خاصة من الأرض ليس ظلاماً وغسقاً دامساً بل هـو منير ايضاً ولكن نوره اضعف مـن نور المكان الذي قابل الشمس مقابلة تامة . ومثله التصور البدائي الذي يتمثل بسبب التعقل ليتوصل به الى التصديق بالحق هو عقل وتعقل ايضاً لكنه ضعيف حتى ينتهي الى التصديق والجزم بالحق ، وحينئذ يكون عقلا كاملا واصلا مشرقاً بتصديقه ويقينه . وادلى في المصراع الرابع بما يدل انه لاوجه لهذا التردد البدائي لان الوجود الامكاني الذي يستحيل ان يكون مترجماً بذاته من غير مرجح ، يستحيل ان يكون وجوده هـو الاصل لوجوده ، وهو لسان ناطق بأعلى صوته ، بأنه مترجح بغيره وانه من فيض وجود الواجب الذي سوّاه وخلقه ، وجمع اجزاءه وركبه ، وهذا لسان ناطق ، وبرهان صادق ، على ان علة الحادث هو القديم وموجد الممكن هو الواجب . وهذا معنى قوله :

ولسان الموجد بالكسر هو الموجد بالفتح فأن وجوده اول دليل على وجود مكونه ومصورة ولم يدر ولـم يلتفت الى هذا البرهان الواضح من قال لست أدري ، وقد التفتت الى ذلك العجوز ، وهي ليست من العلماء

ولا الباحثين فقالت :

الاثر يدل على الاثير سموات ذات ابراج وارض ذات فجاج لابد لأن تدل على اللطيف الخبير .

***

(٤٧)

لم تزل نفسك تخطو خطوة المرتبك
قيد ابن الارض منها ساق بنت للفلك
فكأن للجسم منها حلقات الشرك
اوكأن للروح تشتاق الى ما

ليس يدري

يشير في هـذا الدور الى السبب في اعتقال النفس ، وعدم انطلاقها ، وبقائها خابطة في ظلمات الاوهام والتردد ، سابحة في غمرات تخيلاتها ، عائمة في بحر ضلالاتها ، وهو انغمارها في المادة وارتباطها بما يلائم المادة الواقعة في هوة سحيقة ، من ملذاتها وشهواتها . هو الذي منعها ان تعرج لاصلها الذي منه هبطت ومن صفائه تكونت وعن جوهره انفصلت وقد كنى عن المادة ببنت الأرض . وعن النفس ببنت الفلك . فبنت الارض هي التي اخذت بساق بنت الفلك ، واعتاقتها عن الأتصال بالملأ الاعلى ، وباصلها الذي منه انحدرت فعز عليها بعد اعتقالها فى الهوة السحيقة ان تنهض صاعدة الى مقرها الأول العالى ، ومنزلها السابق المتعالى وانى لها التناوش من مكان بعيد . وقد صرح بما ذكرنا فى المصراع الثالث بقوله (فكأن الجسم منها حلقات الشرك) ومعناه واضح بعد مامر بيانه ، ولما كانت بنت الارض هى المادة التى تكون منها الجسم . فهو حلقات الشرك لاعتقال النفس التي هى بنت الفلك ، ومن المشاهد خارجاً

ان الطير اذ اوقع فى الشرك يدفعه شوقه وحبه الى الطيران وما هـو مرتكز فى طبعه . ولكن الشرك يصده ويمنعه عن ذالك فلذلك كانت الروح الواقعة فى شرك التردد ـ الذي هو من شؤن المادة ـ تشتاق لأن تلحق بأصلها وملأها الاعلى وهو العقل الذي لاتردد في مداركه.و.تطلب ذلك فلا تجده فكان الشرك حاجزاً لها عما تطلبه . والى هذا يرجع قوله او كأن الروح تشتاق الى ماليس يدري . اى ان روح من قال لست ادري مشتاقة الى ان تدري . ولذلك وقفت سائلة فى مواطن عديدة كما عددها فى طلاسمه . فلم تحصل على الجواب الذي تبتغيه . وظلت سادرة فى شكوكها واوهامها الى آخر كلمة جاءت فى طلاسمه .

* * *

(٤٨)

ليت شعري الجهلي فيك كنت الفليسوف
او لأني لست ادري هتفت باسمي الألوف
وعلى طبل ارتباكي ضرب الوهم الدفوف
لست ادري ولعل الغير مثـــلي
ليس يدري

هذا الدور واضح ، وحاصله انه يتعجب ! كيف يـدعى وينعت الجاهل المعترف بجهله ، وانـــه ليس يدري من اين جاء ولا الى اين يمضى . وكلما سئل واستجوب لم يحصل على - غير انه ليس يدري - فلماذا يعد من الفلاسفة وطبل الناس لطلاسمه . والحال ان الفيلسوف من وصل الى من لم يصل اليه غيره ، وكشف ببحثه وتنقيبه سراً لـم يهتد لـه سواه ، واضاء للناس طريقاً كان مجهول السلوك . اما مـــن لـيس يدري ولم يوفق الى شيء عدى انه ليس يدري · لماذا دعي بالفيلسوف الى آخر ماجاء في هذا الدور . وهو تعجب في محله يدل على الجهل الشامل للمجتمع مـــن هذه الجهة ، وهي جهة البحث عما وراء الطبيعة وكأنهم لا يؤمنون الا بما يبصرونه ويسمعونه ويلمسونه وقد تنزلق بأيمانهم المحدود بحدود المادة من الأدراك التعقلي الانـساني الى الادراك الحيواني ، فأن سائر الحيوانات مؤمنة بمثل ايمانهم المحدود بالحواس الظاهرة ، ان هم الا

كالانعام بل هم اضل سبيلا ، لأن الانعام ادركت كلما يمكن ان تدركه بما لها من قوة الادراك المحدود ، ولم تنزل عن مستواها الى الشجر والحجر . اما هم فقد تنزلوا الى المستوى السافل وكان باستطاعتهم ان ينطلقوا بعقولهم الى المستوى العالي ولهذا كانوا اضل سبيلا من الأنعام كما يظهر صريحاً من الآية الكريمة .

***

(٤٩)

ان تكن دقات قلبي عرفت دائي طبيبي
فباحـلام شبابي جزت آهـات مشيبي
وحنـين الورق عندي كغناء العندليب
وكـما لم يدر ماسر بـكاهـا
ليس يدري

على ما اظن ان هذا الدور مقحم في وضعه بعد هذا الدور السابق كما رأيته وارداً في بعض نسخ ((اثباج الطبيعة)) بعد الدور الثالث والأربعين وهناك اوفق ان يكون محلا له ، والمتحصل منه . انه كما ان دقات قلب المريض تكون كاشفة للطبيب عن الداء ، كذلك انا قد عرفت من ادوار حياتي ونزعاتي واحلامي فى دور الشباب ، واختلافها في دور المشيب ، وتحولها الى زلآهات والحسرات . ان لكل دور من ادوار الحياة من امكانيات الطبيعة ومقدوراتها اثراً . غير الأثر في الدور الآخر . فهي في دور القوة والشباب ، غيرها في دور الضعف والشيبه ، وحالها في هذين الدورين كحال الورقاء والعندليب . فهي ورقاء في مشيبها ، وعندليب في شبابها ، وكـما لاتدري الورقاء ماسر بكائها ، لايدري العندليب ماسر غنائه .

ولعل الغاية لوضع هذا الدور بعد الدور السابق هو التلميح الى ان من لم يعرف سوى انه جاء لا من اين ولا الى اين . حاله كحال الورقاء

والعندليب لا يحس الا بما توحيه اليه الحواس الظاهرة ، وقد عطل عقله وتعقله ، او لعل وضعه كمقدمة للدور الآتي بعده . المستعرض للنطاسي الذي بلبلته الشبهات .وهو الذي يعرف الداء من دقات قلب المريض ولم يهتد الى ان العالم الحادث دليل واضح على مكونه ومحدثه .

***

(٥٠)

كم نطاسي عظيم بلبلته الشبهـــات
جرفته بـعد لأي من يقـين وثبات
ماكرات العالم الاعلى؟وما قوق الكرات ؟
من براها فاستكانت حيث كانت
ليس يدري

النطاسي هو مطلق العالم ويطلق على الطبيب ، والمراد منه في المقام مطلق العالم،ويريد في هذا الدور بيان ان كثيراً من العلماء العظام بلبلتهم الشبهات ، والتبلبل هو الوقوع في الوسواس ، ولعل السبب في بلبلتهم هو عدم انشراح مداركهم لغير العلم المستنتج من الحواس الظاهرة ،كعلماء الأدب المتوجهين الى عالم التخيل ، وكالرياضين النابهين في مثل عـــلم الحساب والهندسة ، وامثال هؤلاء فأن شعورهم متجه الى عالم التخيل او التجربة ، ولو تفطنوا الى ان جميع استنتاجهم انما هو بوحي فطرة البديهة ، الحاصلة من ترتيب الشكل الأول البديهي الانتاج الذي ينظمه الادراك الفطري ، ولو من غير التفات الى انه هو الشكل الأول المرتب بمقدماته في علم المنطق . فأن مثل هذه الكلية البديهية وهي ان ـ مساوي المساوي مساوي ـ الـــذي تترتب عليها ثمرات كثيرة في فني الهندسة والحساب فان العالم الرياضي اذا عرف مساوات شيء لشيء جعله صغرى لهذه القاعدة الكلية ورتب على كل واحد مـــن المتساويين آثار المساوي

الآخر من حيث التساوي وهذا الشكل الاول البديهي الانتاج كما يوصل الى النتائج في العلوم المستندة الى الحس الظاهري. ينتج ايضاً نتيجة بديهية في مايقتضيه عالم المعقولات ، في اثبات موجود ماوراء المحسوس بالحواس الظاهرة ولو تفطنو الى ذلك لما بلبلتهم الشبهات وجرفتهم بعد لاى اى بعد جهد من اليقين والثبات الى الاضطرابات والتشكيكات . وانما كان هذا الجرف بعد جهد . لأن الوجدان والفطرة في الممكن تقتضى يقينه بأنه ممكن حادث محتاج بحسب امكانه وحدوثه الى علة غير ممكنة ولاحادثه والخروج من اليقين الحاصل بوحي الوجدان والفطرة يستدعى جهداً وعناء وبعد بلبلته في الشبهات اضحى يسئل عن كرات العالم الاعلى وهو عالم السماء وما حوته من عظيم الخلق وعما هو مافوق هذا العالم الاعلى وهل هناك وجود برأها وخلقها ؟ واقر كل واحد منها في مكانه جعل لها ((خطا)) عليه تجرى ، ومسيراً تسير فيه بحيث لاترتطم بخط مجرى الكرة الاخرى ، ومسيرها ، فاستكانت كل واحدة من هذه الكرات في مكانها الذي هى فيه ، ولا ينبغي لهذا العالم ان يقف مكتوف اليدين ، ماخوذاً بالشبهات ، يعترف بأنه ليس يدري . بل كان ينبغي له ان يهتدي من عظمة المخلوق الحادث ، ودقة خطوطه وحركاته ، الى عظمة الخالق المكون له . المدبر مجراه وسيره ، والمخطط له خطوط تجاهاته وتحركاته .

(٥١)

عام فى تيار بحر الوهم مكتوف اليدين
وتخطى النشأة الاولى لثانى النشأتين
سائلا من اين اقبلت ؟ وهل كنت بأين
وسيمضى مثل ماجاء مريباً

ليس يدري

يتكلم في هذا الدور بما يترتب على بلبلة هذا العالم . الذي جرفته الشبهات وساقته من يقينه وثباته ، الى شكوكه وتوهماته ، فلا يزال عائماً في تيار من بحر الاوهام والتشكيكات . كمن غلت يديه هذه الشكوك بل غل الشك والوهم اقوى واحكم في عوالم افق النفس من الحديد الذي يكتف اليدين ويغلهما . فأنه يتوثب به من شك الى شك ، ومن وهم الى آخر فان من شكه في موجده في هذه النشأة يتولد شكه في وجود النشأة الثانية الآتية بعد هذه النشأة ، ومن الواضح الجلي ان الشاك في هذه النشأة في وجود موجده وخالقه . يشك بطبيعة حاله في النشأة الأخري وهي نشأة بعثه ونشوره فأنه اذا لم يعلم من اين اتى لا يعلم ايضاً الى اين يمضى ، ولذا قال :

في المصراع الثاني عاطفاً على المصراع الاول وتخطى النشأة الاولى لثاني النشئتين . ثم بين في المصراع الثالث شكه في النشأة الاولى بقوله :

سائلا من اين اقبلت وهل كنت في محل آخر قبل ان آتي الى هذه النشأة . وبين في المصراع الرابع انه سيمضي من هذه النشأة الى النشأة الثانية ، ولكنه يمضي وهو على ريب منها غير متيقن بها ، كمثل شكه وريبه في انه من اين جاء ، فهو لايزال ليس يدري من امره شيئاً لا بالنسبة الى نشأته الأولى ، ولا بالنسبة الى نشأته الثانية .

***

(٥٢)

ليس يدري وعلى الموجة اعياه الصمود
أمع التيـار يجري ام الى الشاطي يعود
ينظر الآمال بيضاً ويرى الاهوال سود
فـبماذا غـده المجهـول يأتي

ليس يدري

يستعرض في هذا الدور ايضاً حالات من عام في تيار الشبهات والأوهام ، ومما لاريب فيه ان الشك هو التردد . والشاك لاقرار له على احد المحتملين والا لما كان شاكاً متردداً بينهما ، بل كان جازماً متيقناً لو استقر رأيه على احدهما . فمن انغمر في تيار الاوهام والمحتملات لايزال قلقـاً مضطرباً ، ووقفة المضطرب القلق بطبيعة الحال يلازمها الأعياء . اذ لاراحة الا مـع الاستقرار ومن تعب لايستطيع ان يستمر في وقفة مضطربة ، وهذه الاحوال طبيعية بالنسبة الى مـن عام في تيار الوهم والاحتمال ، فهذا الشاك المعيا ، من هذه الوقفة لايعرف مـن امره شيئاً حيث انه لم ينته الى شيء في حال كونه عائماً في تيار اوهامه ، ويكون متردداً بـين بقائه هكذا ، سائراً مع تيار اوهامه وجارياً بمجراه . ام يعود الى الشاطي ، ولعل مراده من العودة الى الشاطي هي عودته الى حالة ما قبـل سقوطه في تيار الشك وهو الشاطىء الذي بعد بعده عنه

انغمر وعام في تيار الوهم .

ولو عاد الى تلك الحال ، وجرى مع فطرته الأولى ، لما عام في هذا التيار .

فأن الانسان بفطرته يدرك بأنه حادث ممكن محتاج في وجوده الى محدث ومكون . ثم أبان حالة اخرى للمشكك . وهو انه ينظر الآمال بيضاً ويرى الاهوال سوداً .

ومراده من بيض الآمال لابد ان يكون هو الوجود وآثاره ، ومن سود الاهوال هو العدم وآثاره . لأنه لما كان شاكاً في النشأة الثانية وليس بمتيقن بأن هنالك عالم آخر غير عالم هذه النشأه . فهو لايدري ايتمتع بالوجود والبقاء والحياة الدائمة وهذا هو الامل الأبيض ، فأن الوجود والبقاء هو الاشراق والخير المليء بالبهجة ، أم ينتهي الى العدم والفناء وهو والظلم والشر وهو الاحتمال الاسود ، وليس مراده من الامل الأبيض والهول الاسود هو الجنة والنار ، فأن هذا حال من له اليقين بالبعث .

ولكنه حيث لايدري انه هل يعامل بالفضل والرحمة . فيكون مصيره الجنة . ام بالعدل والأستحقاق فيكون مصيره النار .

لأن كل شخص ماعدى المعصومين غير مطمئن لمصيره .

- اللهم عاملنا بفضلك ، ولا تعاملنا بعدلك . وانت ارحم الراحمين - .

واما من كان شاكاً في اصل وجود الخالق . فـو شاك في اصل وجود النشأه الأخرى ، وفي اصل عالم البعث والنشور ، فلذلك فهو لايدري بماذا يأتي غـده المجهول ، أبـا لوجـود الأبيض ام بالعدم الاسود .

***

(٥٣)

تلك ارجوحته الكبرى ، وهذا الفلك

ليس يدري أفراغ هو ام محتبك ؟

فهو لايدرك الا انه لايدرك

ماصموت الليل ؟ ماهذى للدراري ؟

ليس يدري

لما كان الشك هو تردد بين طرفين لاأستقرار فيه على احدهما شبهه بالارجوحة فانها لاأستقرار فيها على وضع واحد . ومراده من فراغ الفلك واحتباكه . هوانه هل هناك وجود غير هذه الموجودات الممكنة قد ملأ العالم بفيض فعله وايجاده ، ام انه ليس هناك الا هذه الموجودات الممكنة ووراؤها فراغ ، وليس مراده من فراغ الفلك واحتباكه . هو ان الحال كما يقوله : علماء الهيئة المتقدمون من ان هناك اجسام تتركز هذه النجوم فيها او هو كما يراه علماء الهيئة المتأخرون من انه ليس هنالك في الفضاء اجساماً اخرى غير نفس النجوم . فأن اختيار احد الرأيين ، او الشك في الصحيح منهما . لايضر بالايمان وليس الأعتقاد بوجود اجسام اخرى غير النجوم ، ايماناً او الاعتقاد بأنه ليس هناك غير نفس النجوم من اجسام اخرى كفراً . ولا يكون التردد بينهما والشك في ان الصحيح ايهما شكاً ، وترددا ، بين الكفر والايمان . وليس مراده من التردد بين الفراغ والاحتباك الاشارة الى المسئلة المبحوث عنها في الفلسفة من الملاء

والخلاء. فأن هذا التردد ايضاً لايرتبط بالأيمان والكفر. وليس مراده من الفراغ والأحتباك هو انتهاء الفضاء وعدم انتهائه، فأن هذا ايضاً لادخل له بالأيمان والكفر. فيتبين ان يكون مراده من الفراغ والاحتباك ماذكرنا اولاً.

ويصرح بما ذكرنا المصراع الرابع. فأنه بعد ان قال:

ان الشاك لايدرك الا انه لايدرك، لوضوح ان محض الاحتمال ادراك تصوري، لاثبوت له في افق النفس الا بمقدار انه صورة عابرة لم يتضح للشاك مطابقتها لما في الخارج. بخلاف اليقين فأنه هو الادراك لصورة يعتقد المتيقن مطابقتها للـواقـع قال: في المصراع الرابـع ان الشاك لايدري ماوجه صموت الليل، وما هذه الدراري، وليس جعله صموت الليل وسكونه محلاً للسؤال لخصوصية في الليل وصموته. وانما هو الاشارة الى ماعليه الكون من الوضع المختلف. من صموت ليله وصخب نهاره، والى هذا الترتيب الدقيق الذي وضع كل شيء في محله المناسب له. لأن الليل لما كان وقت الراحة والهدوء لم يـكن فيه الأنسان محتاجاً الى النور اذ أن الانسان انما يحتاج الى النور لأجل ان تنتظم فيه الحركة المرتبطة بتدبير مايحفظ فيه نظام معاشه، ولذلك كان وقت الحركة ناطقاً بنوره، صاخباً بأصوات السعي، والحركة والتوثب، من جهة لأخرى والتقلب من حال الى حال، يهب فيه الحيوان لبلغته، والانسان لحاجته، ولهذا تعاقب في الكون الليل والنهار، والظلام والاسفار ولكل نظامه الذي اقتضاه، واثره الذي تولاه، فهل ؟ هـذا النظام

الدقيق كإن من افعال الطبيعة العمياء ، وهل ؟ هـذه الدقة في الخلق والتدبير من اعمال المادة البكـماء .

كلا انه لمن صنع مدبر حكيم سبحانه جل وعلا في خلقه وتدبيره .

ـ هو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر واراد شكورا ـ

***

(٥٤)

اسمعته نبرات الكون لغزاً أبديا
وارته شرف الغاية فاجتاز المغيبا
فرأى العدم وجوداً ، ورأى اللاشيء شيئا
فتراه يستمد الفيض ممن
ليس يدرى

ينبه في هذا الدور السائل الذي وجه سؤاله لمن لا دراية له ، ولاخبرة ولذا لم يجد عنده جواباً لسؤاله ، ولا حلاً لاشكاله فما كان ينبغي له ان يسأل البحر بما هو بحر . ولا القصر ولا القبر بما هما قصر وقبر بل كان ينبغي له ان يسأل عقله الناظر في هذا العالم العجيب ! في اتقان وضعه وخلقه ، ويصغي بأذنه الواعية لأن يسمع نبرات الكون التالية لآيات الله في وجود مخلوقاته ، ودقيق تصرفاتها ، وبديع خطوطها وحركاتها .

فأنه لو وجه سؤاله الى نبرات هذا الكون ، لقاده الى اللغز الابدى ، والأيمان بالواجب الخالق المصور المدبر ، وجعلت نصب عينيه مايراه جلياً بيناً من شرف الغاية وجلالتها . وان الغاية الخلود والبقاء ، لا ألاضمحلال والفناء ولكنه اغمض عين عقله ، وسد اذن سمعه ، ولذلك اجتاز وتخطى المغيبا . الذي لو سئله لهداه واعلمه ، وانتشله مما تخيله وتوهمه . ولما ضل عن طريقه البين الواضح ، وسبيله اللحب الناجح ، فدفعته اوهامه وتخيلاته

وشكوكه وترددداته . حتى صار يرى العـــدم وجوداً ، واللاشيء شيئاً وطفق يحتمل ان يكون فاقد الشيء يمنح عطاء . وما لا اقتضاءً له بذاته يزجي اقتضاء . وهو من هذه الناحية (عدم ولا شيء) ، قد جعله لجهله وجوداً وشيئاً . وعاد حاطب ليـــل يخاطب من لايسمع ، ويسأل مـــن لايعلم ، ولذا تراه يستمد الفيض والارشاد ، ممن لاوعي عنده ولارشاد . ليس يدري فكيف يجيب عما لايدري .

***

(٥٥)

عام كالزورق يطفـو يتلاشى ويغـور
شاعراً فى جهله ، والجهل يستوحي الشعور
ان يـك المـرفأ موجـاً فالى اين العبـور ؟
اين مرسى سفن الـكون ؟ ايبقى ؟
ليس يدري

لما كان تيار الوهم لا شاطيء من الحقيقة له ، فهو بحر متلاطـم الامواج بلا نهاية ، وحركة عنيفة بلا غاية . فالعائم فيه كزورق يطفو في لجج اوهامه تارة . ويتلاشى ويغور فيها تارة اخرى . لا الى ساحل ينتهي ، ولا الى مرسى يرسي ، ولما كان شاكاً فهو جاهل يشعر بجهله والجهل عـدم ، والوجود يطلب الوجود ، فالجاهل دائماً يطلب ان يستبدل العدم بالوجود .

فلذا كان الجهل يستوحي الشعور .

ويحتمل ان يريد بقوله : والجهل يستوحي الشعور . انه كان ينبغي لـه ان يستنطق شعوره ، ويهتدي به الى اليقين . ولا يبقى عائمـاً في لجة هذا البحر الذي لاشاطيء له ولا ساحل ، ولا مرفأ له الا امواجه ، ولاقرار له الا اضطرابه ، وارتجاجه ، فكيف يحصل له العبور . ولا يعقل ان يتحقق العبور الا من شاطي الى شاطي ، ومن حد الى حد ،

فما لا شاطي له ولا ميناء ، لاعبور فيه ولا انتهاء ، ولـذا قال ان يك المرفأ موجاً فالى ايــن العبور . وكان ينبغى له ان يشعر بأن موجودات هذا العالم الممكن كسفن عائمة في بحر قدرة الواجب . فكيف ؟ لايكون لهذه السفن مرسى ولا ميناء ، ولا آخر ولا انتهاء ، ولا ينبغي له ان يبقى لا يدري . ولذلك استفهم مستنكراً ؟ او متعجباً ! بقوله : ايبقى ليس يدري ؟

* * *

(٥٦)

واجماً يستنطق الشـــك ويستفتي الظنون

ما مصير للعـالم الادنى ؟ وماذا سيكون ؟

اصحيح مارووه عن كياني ؟ ام مجون ؟

ليس يدري ولماذا ليس يدري

ليس يدري

الشك اخرس . والظن لا يغنى من الحق شيئاً . فهو يريد ممن لاينطق ان ينطق . وممن لايغنى ان يغني . ثم يقف سائلا منهما عن مصير العالم الأدنى ، وماذا سيكون هذا العالم ، ولماذا كان شاكاً فيما رووه له ، من انه مخلوق للبقاء لا للفناء . لذلك صار يسأل ويقول اهل ؟ صحيح مارووه لى عن كياني . وانه سوف ينتقل من نشأة الى نشأة . أم ان مارووه لي لاصحة له ولا واقع فما رووه يكون من المجون والفكاهة الواهنة . بلا مطابق . لا النبأ الصحيح الواقع طريقاً للحق الصادق وقـد اعترف المشكك بأنه ليس يدري ، وانه لايدري ايضاً انه لماذا ليس يدري وهذا عجب في عجب ! وطريق الحق نصب عينيه وواضح لديه .

(٥٧)

نظرات دفعته بين احضان السديم
فارته للعالم الحادث والكون القديم
فلو استخدم في تحليلها للعقل السليم
لبدا السر المخبا ، ودرى من
ليس يدري

السديم لغة هو الضباب الرقيق ، ويطلقه المتأخرون اليوم على الذرات المنتشرة في الفضاء ويستعملونه ايضاً في خصوص ما احاط بالنجوم . وان لكل نجم سديم يخصه . ويرون ايضاً ان العالم بأسره ، بما في سمائه وارضه . اصله هذا السديم . والماديون يقولون : ان السديم هو قديم بالذات ، وهو المادة التي لاتفنى ولا تستحدث في نظرهم . وقد سبقهم ديمقراطيس من القدماء القائل بأن اصل العالم اجسام صغيرة صلبة لاتنقسم . وقد تعرض لرأيه الحكماء في مبحث الجزء الذي لايتجزأ . واقاموا البراهين الكثيرة الناطقة على محالية عدم انقسام الجسم ، وان الجسم لابد وان يكون ذا طرفين . فلا محالة ينقسم . فان اعيا انقسامه في الخارج لصغره . يقسمه العقل . واثبتوا محالية الجزء الذي لايتجزأ . وعلى كل فالمادة في نظر الماديين هي القديمة بالذات .

واورد عليهم الألهيون بان المادة القديمة بالذات في نظركم هل هي هذه الذرات المنتشرة في الفضاء . وهذه بنفسها ذات صور

ومادة ، وابعاد ، لامادة مجردة عن الصور والابعاد . وهي مركبة والمركب لايعقل ان يكون قديماً . لاحتياج اجزائه بعضها لبعض . والمحتاج في وجوده وتكونه الى شيء ، يستحيل ان يكون قديماً بالذات . وان كانت المادة هي الجزء الذي لايتحصل الا بالصورة . فهي غير متحصلة بذاتها فكيف ؟ تكون قديمة بالذات . واذا قال : الألهيون ان المادة لاتفنى ولا تستحدث فمرادهم ، ان هذا الخلع واللبس الطارى على المادة بما يتعاقب عليها من الصور . انما هو في الصور المتعاقبة عليها لافي ذاتها . فالتغير والانقلاب الطارى مثلا على الجسم الموضوع في المملحة حتى صار ملحاً . انما هو للصورة التي كانت له قبل ان ينقلب ملحاً ، ثم خلفتها الصورة الملحية . اما المادة التي تعاقبت عليها الصورتان فلم تتغير بذاتها ، ولم تنقلب . فالمراد من عدم فنائها عدم تغيرها وانقلابها . واذا ثبتت انها غير متغيرة بذاتها فلابد ان لاتكون مستحدثة . اذ بعد ثبوتها مستمره في الصورة التي تتراوح عليها . لم يطرأ عليها العدم ، حتى يكون لها حدوث . وليس مرادهم من انها لاتفنى ولا تستحدث . هو انها قديمه بالذات ، كما يراها الماديون . وبعد ما عرفت من معنى السديم فمراده من قوله : فأرته العالم الحادث والكون القديم . ان نظراته التي اندفعت بين احضان السديم ارته تلك النظرات المجردة عن العقل السليم . ان السديم قديم وما يتولد منه هو الحادث . ولكنه لو استخدم عقله السليم في تحليل تلك النظرات لأوصله ذلك التحليل الى استحالة قدم السديم . وكيف ؟ يعقل ان يكون قديماً ، وهو مركب والمركب كما عرفت محتاج والمحتاج يستحيل ان يكون قديماً بالذات . هذا مضافاً الى امكانه الذاتي ، والممكن

لايترجح وجوده فيوجد الا بموجد واجب قديم بالذات مع ما اقيم من الأدلة الكافية الوافية القاطعة في محلها على انتهاء سلسلة الممكنات الى الواجب بالذات جل وعلا . ولذلك قال : انه لو استخدم عقله السليم لبدا السر المخبأ في نظرات الوهم المجردة عن العقل واضحاً جلياً ، بل بديهياً في نظر العقل السليم ، ولدرى به من ليس يدري .

***

(٥٨)

أوقفته موقف الحيرة ، مقتول الشعور
لمصير الكـون حقا كمصيري أم غرور؟
ادرك الباحث أمراً ، واختفت عنه أمـور
فهو لايدري وقـد هام لمـاذا
ليس يدري

يقول : ان نظراته المجردة عـن العقل السليم ، اوقفته موقف الحـيرة .

وانما وصفه بأنه مقتول الشعور . لأن القتل نهاية الحياة ، ولما كان شعوره لم يتعد حدود الشك والحيرة ، فكانه قد انتهت حياته عند هذا الحد ، وليس لشعوره ماوراء حد الحيرة حياة يعيش بها منعماً في خلد اليقين ، منطلقاً من اغلال التردد ، والتحير ، ثم ذكر وجه الحـيرة بقـوله :

امصير الكون حقاً كمصيري ام غرور ؟ اي ان الكون بكله هـل ؟ هو حادث لا قدم فيه . والحادث كما انه لا قدم له لا بقاء له . فلا محالة ان يفنى كما افنى انا . ام ليس الامر كذلك وان هذا الكون فيه ماهو قديـم بذاته والقديم لافناء له . فكون مصيره الفناء كمصيرى غرور لاواقع له ، ولما ادرك انه هو حادث فقط من دون ان يعلم ان موجده

ممكن وحادث مثله ، ام الواجب القديم بالذات .

وايضاً قد اختفت عليه احوال العالم واموره فلذلك كان هذا الباحث قد ادرك امراً واختفت عنه امور ، فهو اذاً لايدري وقد هام على وجهه يستحفي السؤال وانه لماذا لايدري .

***

(٥٩)

مخرت نظرته الحمقا بتيار الفضاء
وتلاشت دون ان تدرك من فوق السماء
راعها ما شاهدته من ظهور و خفاء
وغشتها موجة الحق ، فاضحى
ليس يدري

النظرة الحمقاء هي النظرة البدائية المندفعة من غير قصد تام ولا شعور كامل . ولما كانت نظرة هذا الباحث نظرة الحيرة ، وهي نظرة بدائية ، من غير شعور تام ، والا لكانت نظرة عقلانية حاصلة عن عمق وترو وتدبر منتهية الى الواقع ، بعد الاخذ والرد . ولم تكن نظرة بدائية . ولما كانت هذه النظرة الحمقاء نظرة حيرة وتردد ، محدودة بما تحسه بالحاسة الظاهرة لا بحاسة الأدراك والتعقل .

فلما مخرت بتيار الفضاء وقفت عندما تشاهده في الفضاء . وتلاشت وانقطعت عما وراء ذلك من المجال الموصل الى السماء ، وما فوق هذا الفضاء ، ولما كانت هذه النظرة نظرة شك احد طرفيها ماتحتمل خفاءه عليها لذلك راعها ماشاهدته من ظهور ، وما احتملته من خفاء ، وانما راعها ذلك لانها لما احتملت ان وراء ماتشاهده في الفضاء وجود . هو وجود من فوق السماء ولا يعقل ان ينتهي حد ايجاده بهذه النشأة .

بـــل يكون لايجاده وفيضه نشأة اخرى ، وعالماً غـــير هذا العالم فأرتاعت لذلك .

ولما كانت هذه النظرة المتحيرة لم تصل الى الحق ، ولم تستمد بنوره بل كان على وجهها غشاوة قال : وغشتها موجة الحق فاضحى مـن له هذه النظرة ليس يدري .

* * *

(٦٠)

فهـو والعـالم اضحـى في صراع و عـراك
أهـو شيطان مـهين كان ام كان مـلاك
فهـو مـن قدسية الذات بشك وارتباك
أمن للنـار أو النـور تـدلى ؟

ليس يدري

المراد من الصراع المشاجرة ، واوضحها بقوله : اهو شيطان مهين ؟ كان ام كان ملاكاً ، فهو يمثل حيرته وتردده في امر العالم بالمشادة ، بين نظرته المتحيرة وبين العالم. فهل ؟ العالم عند هذه النظرة المتحيرة عالم مادي ليس فيه غير شؤن المادة ، من الفساد والأنغماس في الشهوات ، والفتك والظلم ، والعسف والغشم .

وعلى هذا فالعالم شيطان مهين. ام انه نشأ عن نظام كامل ، وصلاح تام ، وكل مخلوق مسير لما خلق له . فيكون نظام العالم كملاك قـد انشأ القدس والصلاح والفضيلة .

وعلى هذا فالعالم ملاك. وقد اوضح ماذكرنا من مرآده بقوله : فهو من قدسية الذات بشك وارتباك . لأنه لم يتضح له قدسية ذات العالم وهو على شك من ذلك وارتباك . وزاد ايضاحه بقوله :

امن النار او النور تـدلى ؟ فأنه اذا كانت ذاته ذاتاً شيطانية . فهي

ذات نارية محرقة بأجرامها ، ومحطمة بفسادها . واذا كانت ذاته روحانية قدسية ، كانت ذاتاً نورانية قد تدلت من محض النور والصلاح . ولما كان لم يزل في حيرة وشك من ان العالم هل هو ؟ شيطان ام ملاك كان لايدري .

***

(٦١)

عارض الكون بقلب ملكته الشبهات
وتغشاه بطرف ، قد تغشاه للسبات
شرب السم بدعوى انه ماء الحياة
فهو قد يرزح لكن ما دهاه ؟

ليس يدري

هذا المصراع واضح المعنى . لأن المفروض ان علة الحيرة والتردد هو الشبهات . فقلبه قد عارض الكون وقد انقاد للشبهات والاوهام . ومثله المصراع الثاني ، فأن القلب المملوك للشبهات يكون ذاعين نائمة لامتيقضة والنائم ينحصر شعوره في الخيالات . ولما لم يكن للشاك الا محض الوهم والتخيل . ولو كان له تعقل تام لما كان شاكاً . فلذلك كان هذا الشاك قد تغشى كون العالم بطرف نائم قد تغشاة السبات ثم قال : شرب السم بدعوى انه ماء الحياة . ومعنى هذا المصراع الثالث انه لما كان هذا الشاك قد عد نفسه في عداد الحكماء والفلاسفة ، وان بحثه وفلسفته الصحيحة في نظره لاتؤدي الى غير الشك . بل يرى ان الفلسفة الباحثة عن تدقيق وتعمق ينبغي ان لا تنتهي لغير ذلك . حسب ان ما عبه شعوره ، وشربه ادراكه ، هو الادراك الحقيقي الواصل . وانه يحيى بهذه الحياة ، الحياة الكاملة ففلسفته المشككة هي ماء الحياة التي ينبغي ان يحيا بها كل انسان . ولم يعلم انه قد شرب من فلسفته هذه ماء زعاقاً ، وسماً ذعافاً

ونشر فكرة جهنمية ، واوهاماً شيطانية ، وهو بنفسه غير مرتاح فيها . وقد يظهر منه انه يرزح فيها ، وينوء بثقلها ، ويعيا بحملها . ولكنه لايشعر ولا يدري بأن مادهاه من هذا العبء الثقيل قد جاء من ناحية فلسفته ، وهي التي اثقلت كاهله ، واعيته ولذا قال :

فهو قد يرزح لكن ما دهاه ليس يدري .

***

(٦٢)

طاف كي يستنطق الارض بلاداً فبلاد

ويناجيهـــا جميعـــاً حيواناً وجماد

اصحيح ان بعدالموت حشر ومعاد ؟

ام تراهم كذبوا فيما ادعوه ؟

ليس يدري

ليس في هذا الدور مايقتضي البيان والشرح . وكونه بهذا الشكل من الاستنطاق اول بادرة عند الشاك . فأن اول مايدور في خلده انه لايدري اهل بعد الموت حشر ومعاد ؟ ام ليس هناك الا الفناء والنفاد .

(٦٣)

ماوراء الافق النائي ؟ وما خلف الاثير ؟
اسديم ازلي ؟ ام فضاء مستنير ؟
ولمن هذي الدراري ؟ والى اين تسير
افتبقى هذه الاكوان لغزاً ؟
ليس يدري

كلمة (ما) . في كلتا الجملتين في المصراع الأول استفهامية ؟ لما يدل على ذلك استفهامه في المصراع الثاني : وان ماوراء الافق النائي اهو سديم ازلي . ام فضاء مستنير . والاثير عند قدماء علماء الهيئه هو الفلك التاسع . وفي اصطلاح علماء الطبيعة هو مادة لاوزن لها ، ولعلها هي الطاقة في اصطلاحهم ايضاً ومن تموجاتها يكون امتداد الصوت والحرارة . وهي منتشرة بين السماء والارض . والظاهر ان مراده من الاثير هو المعنى الثاني المتداول في هذا العصر على لسان علماء الطبيعة . وعلى كل فهذا المشكك لايدري ان ماوراء الاثير الموجود في افق السماء والارض هل هو السديم ؟ الذي هو الاصل القديم لجميع الكائنات في نظر الماديين . ام ان ماوراء الافق النائي الفضاء المستنير . ومراده من الفضاء هو السعة ، والشمول النير وهو نور الايجاد المقدس ، والفيض الآلهي الأقدس ، وعليه فهذا المشكك لايدري ان العلة للدراري وهذه النجوم هل السديم . او فعل الله وكلمته التي انارت السماوات والأرض . واذا كانت الدراري من فعل الله ،

فهي تسير على نظام وتدبير على خطوط متعادلة . نظمها الخالق المصور الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً وانها صنع الله الذي اتقن كل شيء فهي بدئت بتدبير ، لامحالة ينتهي في سيرها الى تدبير يعجز عن وصفه الواصفون ، ويقف دون الأحاطة به الباحثون ، سبحانه وتعالى جل مبدعاً ، وخالقاً ، ومدبراً . واما اذا كانت من صنع السديم الذي لايدري . وهي لاتدري . والمشكك مثلهما لايدري . ودع عنك البراهين القائمة الواضحة على سخافة هذا الرأي والبرجع الشخص الى ضميره ووجدانه وانصافه فهل يستطيع ؟ ان يمنح الصدفة جلالة هذا الفعل ، وعظمة هذا التدبير ماأسعد حظها عندهم . وما اتعس حظهم في بعده عن الواقع . وسقوطه في سفالة الباطل . وما اقبحه من نكران ظالم ، وجحود غاشم ، وانهم لأظلم من المشركين . والشرك ظلم عظيم . وهذا اعظم منه وأخزى . وهلا للمشكك ان يعود الى عقله ، والى فطرته ووجدانه ، ولا يبقى على شكه وتحيره . ولا تبقى هذه الاكوان لغزاً عنده ليس يدري من امرها شيئاً

(٦٤)

فاض لكن ليس يدري اورود ام صدور
وعلى اي نواة عقرب الكون يدور ؟
انظام يملأ النفس جمالا وشعور ؟
ام هي الفوضى كما قد يتراءى ؟

ليس يدري

يقال فاض الوادي اذ سال الماء فيه وامتلأ . وصاحب الطلاسم قد فاض وادي شعوره بطلاسمه . ولما كانت من اول دور جاء فيها ، الى آخر دور ختمت فيه . ليس فيها اثر لليقين بشيء اصلا . وانما هي شكوك متراكمة واوهام متتابعة ، فهو وان سأل شعوره بما ادلاه الا انه ليس يدري انه هل هو؟ في عالم يملأ النفس جمالا - والنفوس ريا قناعة بانه قد صدر عن مدبر أحكم صنعه . واتقنه ، فما اجمل روعته ! وما اغزر نجعته ! ام ان الصدفة جاءت به هكذا . فلا يكون فيه روعة جمال للنفس في شعورها . ولا رياً لظمائها . وتكون النفس كصادرة من دون رى . ولما كانت نتيجة الشك والتردد في امر العالم فهو اذن لايعلم افي ورود ، هو ام صدور ، وقد صرح في المصاريع الثلاثة التي تلت المصراع الأول بما اشرنا اليه لأنه قال : في المصراع الثاني وعلى اى نواة عقرب الكون يدور . ومراده من النواة المركز الذي عليه يتركز عقرب الساعة في حركته وصاحب الطلاسم لم يعرف ان عقرب هذا الكون المتحرك فيه هل هو مرتكز على نظام يملأ النفس جمالا بروعته ، وعجائب حكمته ، وعظيم

صنعته ، وجليل قدرته ، حيث يكون قد احكم نظامه الواجب الخالق ، الذي برأه وملأه بما يضيق الشعور به عجباً ! من دقيق التركيب الذي يبهر العقول وهو الذي خلق فسوى . وقدر فهدى . ام ان الصدفة خلقته فلا يكون له نظام مقصود . وحينئذ فحركاته فوضى ، وتدبيره صدفة ، ما أنفهها خرافة والعجب كل العجب ! انها اضحت تلوكها افواه من يطلق عليهم اسم العلماء الذين يدعون انهم بحثوا ونقبوا بفلسفتهم فلم ينتهوا الى غير الشك . - افي الله شك فاطر السموات والارض - كبرت جرماً كلمة تخرج من افواههم ، وما شرحناه هو ماقاله : في المصراع الثالث انظام يملأ النفس جمالا وشعوراً وفي المصراع الرابع : ام هي الفوضى كما قد يترائى من كلام من اعرض عن البرهان والوجدان . وجرأ ان يقول لست ادري فهو اذن ليس يدري .

(٦٥)

جاء كي يعبث بالعقل ويهزا بالدليل
ويرى كل جميل ماثل غير جميل
يتحدى كل علم ويداجي كل جيل
فتراه كل ما استنطق شيئاً
ليس يدري

يريد ان يقول ان صاحب الطلاسم . جاء في طلاسمه كعابث ولاعب ، لاكناظر عن جد وانصاف . ولذا لم يسأل عقله وما استرشده . ولم يسأل الدليل وما استنطقه . ولو كان قد جاء جاداً لاعابثاً يسألهما . لأرشداه ولو استهداهما لهدياه . ولو سأل عقله لقال : له اني لو جهلت كل شيء ماكنت اجهل بدني وما حواه ، مما لا يحصى من أعمال ، ومن معامل وعمال . وقد ادى كل واحد وظيفته ، وسد الحاجة من جهته . فبصر وذوق وشم ولمس ، وعظم وعصب ودم ، وقلب وكبد ودماغ ومعدة وامعاء وتحليل وتصفيه ، واخذ ماينفع ، وقذف مالا فائدة به ، وهلمجرا من آلاف الجهات والتوجيهات ، ومختلف الاعمال والحركات ومعامل اخرى تغذيها ، وتنميها ، وتوصل لها رزقها وتكفيها فالعين مثلا لاتنتهي الى البصر الا بعد طبقات لكل طبقة دخل في النتجة . وهناك عمال آخرون يتولون التغذية لمن لايريد الا الغذاء والتغذية . والتنمية

لمن كان في حاجة اليها . وما ذكرته كشيء ليس بشيء . لما في البدن من اعمال وتدبير . فهل هـذا كله ؟ وهو كالواحد بالنسبة الى ما فوق البلابين مما في العالم من اعمال محكمة وافعال متقنة ، لايكفى لعقل كـل ذي عقل ان يهديه ويرشده الى التصديق التام الثابت بعدم صلاحية غير الواجب جل وعلا الواهب الوجود ان يكون فاعلا وخالقاً . ولو سأل ؟ الادلة والبراهين وما اكثرها لأخذت بعصاه الى الطريق الواضح ، والنهج السوى المثبت فيض الخالق ، الفاعل ، المختار ولكنه عبث بالعقل ، وهزأ بالدليل . فتجنبهما . وايضاً تجنب جمال الخلقة ، وروعة الصنعة ، والكل نصب عينيه . فاعرض عنهما فلا الجميل الماثل امامـه بجميل عنده ولا الصنعة الرائعة رائعة في رأيه . بل لو تأمل حقيقة كل من سأله من بحره وقصره : وكوخه وقبره ببنائه وبمائه وحجره وترابه ومدره . لدله كـل ذلك على الحق الحقيق ، بالتصديق . اتراه ؟ يصدق لو قال : له القائل ان القصر والـكوخ على ماهمـا عليه من بساطة الصنعة لم يصنعهما صانـع .

وانما الصدفة اوجدتهما . كـلا لايصدق ولا استخفه وهزأ به فلماذا ؟ اصبح مستهزأ في طلاسمه بالعالم على مافيه مما يبهر العقول . من محـكم الخلقة ، وعظيم التدبير ، ولو نظر نظره قبصر في البحر ومائه لما رجـع عنه وهو يقول : عـن البحر انه لايدري . وحسبه مثله لايدري . فأنـه خلق مالحاً اجاجاً . لاعذباً فراتاً . والا لفسد وافسد العالم . وعن كيفية تركيب مائه وهو سائل يخالف السوائل في بعض الآثار ، ليصلح مقراً

ومستقراً لما يعيش فيه من الحيوان. فهل يصح ؟ في نظر المتبصر انه كان كل ذلك لمحض الصدفة . ومثله الحال لو انعم النظر في التراب والمدر ، وان لكل تربة تركيب خاص بها يخالف التربة الأخرى ، ليعم نفعها مختلف النباتات والاشجار : وهكذا لو سأل كل شيء ؟ لانبأه عما فيه من بداعة التكوين ، وبراعة الخلقة . بما يعود فيه دارياً بأنصافه ، وفطرة وجدانه ، ان الصدفة والمادة هما اعجزوا عجز عن ان يوجدا شيئاً ، ويمنحاه مافيه من الاستعداد والقابلية لاقل اثر . وفي كل شيء له آيـة تدل على انه واحد . فلماذا رجع يقول : لست ادري . وعلى كل فهو في عدم درايته قد تحدى العقل ، والعلم ، والوجدان ، ولذلك نراه كلما استنطق شيئاً رجع يقول لست ادري :

وايضاً قد داجى كل جيل ، والمداجاة هي المماراة واظهار غير الواقع فأنه من جملة ماجاء في طلاسمه انه سأل كتاب الدهر ، والاجيال التي كانت فيه ، وان في كل عصر جيلا غير الجيل السابق في العصر السابق على عصر ذلك الجيل . وقال : عنها انه لم يجد في كتاب الدهر مابه يكون دارياً . وهذه هي المداجاة . فأن في كتاب الدهر مافيه الكفاية لأن يوقفه على النظام لكل جيل بما دبر له مما يضمن حياته وعيشه في المدة المقررة له ان يحياها .

ونظم لكل جيل معاشه ومعاده ،

فأرسل لكل جيل رسولا او رسلاً تهديهم الى سواء السبيل ، وتدلهم على واضح الطريق .

وكان لله بذلك على الناس الحجة في كل جيل وعصر . فهل جاز عنده ان تكون هذه النظم ، التي حفظت الاجيال ، واستمر الدهر باجياله سلسلة متصلة بعضها ببعض .

كانت لمحض الصدفة . ولم تكن عن خالقها الذي خلقها وسواها ، وتكفل لها زرقها وبلاغها . فلماذا يقول لم يجد في كتاب الدهر مابه يدري .

***

(٦٦)

سار كالمـارد يطوي كرة العالـم طيـا
زاده للصمت بياناً فـأحال النطق عيـا
لم يجد في صفحات الكون عنوانا جليا
فهو فيما يتجلى من جـمال

ليس يدري

جاء هذا الدور كتعليق على الدور السابق ، ودليل على السبب الذي جعله ـ لم يجد في كتاب الدهر مايوضح له السبيل ويهديه الى الطريق ـ الواضح ، من معرفة الخالـق ، والاذعان لوجود الواجب بالذات ؛ والمارد هو مـن عنا وتجاوز الغاية التي نصبت له . ولذلك يوصف به الشيطان وينعت به الجان :

ومعنى سيره ، هو السير بعقله ، في كائنات العالم ، وسير موجوداته : فقد سار فيها سيراً خاطفاً ، وسيرها سيراً سطحياً ، لم يتدبر مافيها من نظام محكم ، ووضع متقن ، بل طواها طي المارد العاتي . ولو تمشى مع عقله السليم ، لوجد جميع هذه الظواهر الطبيعية ، من الأرض وما عليها والسماء وما فيها ، مـع صمتها . ناطقة بوجود مدبر حكيم . ومعترفه بالواجب القديم . ولزاده الصمت بياناً ، والسكوت ايضاحاً بالخالـق المبدع . ولكنه لما ينظرها من نافذة العقل السليم ، ولم يتدبرها بفكره

الصحيح بل دهمها بظلم تشكيكاته ، ورهج اوهامه . فاحال نطقها عيا وبيانها خرساً ، وكيف يمكنه النظر بعين الشك العمياء ، ومع هذه الركضة الرعناء الى العنوان الجلي ، في جود معبوده ، واثبات مقصوده . فلذا لم يجد في صفحات الكون ماينفعه ، ولم ير مايقنعه . فبقى في عشوة عن جمال قدرة الله تعالى ، وتحمساً عما يتجلى من عظيم خلقه وتكوينه فاضحى ليس يدري .

***

(٦٧)

شام في معترك للدهر حياة ودثورا
ولدى منعطف للوادي قبوراً وقصوراً
وعلى سفحه وجه الكون حزناً وسروراً
فطغى الشك عليه ، فنراه

ليس يدرى

ليس في هذا الدور مايحتاج الى الايضاح . لأنه يتضمن تعداد ما استدعى شكه بحسب نظره . وهو انه رأى في الدهر حياة ودثورا ، ورأى قصوراً وقبوراً ، ورأى حزناً وسرورا ، فاستدعى ذلك شكه . لأنه لم ينعم النظر في سر الحياة والدثور . ولو تأمل بعض التأمل . لانتهى الى أن هذه النشأة هي عالم الكون والفساد ، وعدم الدوام والفناء وانما البقاء في النشأة الأخرى . فلا محالة لابد وان تكون تلازم بين الحياة والدثور .

ولازم ذلك ايضاً وجود القصور والقبور ، فالقبور للاموات ، والقصور للاحياء . لحاجة الحياة والموت اليهما ولما كانت هذه النشأة مبنية على التقلب والتغير . فلا مناص ايضاً عن ان يكون فيها حزن وسرور . وقد طغى الشك عليه لذلك .

وكان ينبغي ان يكون ذلك موجباً ليقينه وتصديقه . لا لشكه وهمه .

لأن الكون المبني على التقلب والتغير لابد وأن يكون فيه مارآه . وهل هناك ؟ نظام اتم للعالم الذي هو عالم الكون والفساد من نظام الحياة والدثـــور ، والقصور والقبور ، والحزن والسرور ، فتراه ليس يدري . وكان حقاً عليه ان يكون ذلك موجباً لأن يدري

***

(٦٨)

لو تخطى معي للسجن وكسرنا القيود
وتنكبنا الى الحق روابي وسدود
لنقلنا كلمات السر عن لوح الخلود
وكتبناها على اللحد ، ولكن
ليس يدري

ينبغي ان يكون مراده من السجن. هو سجن الشك والوهم والرسوف في اغلال المادة وشهواتها . وهنا ايضاً ينبغي ان يكون المراد من الروابي والسدود الواقعة في طريق الوصول الى الحق . والا فليس هناك عقبات وموانع عن بلوغ الحق ، واليقين به . وهو واضح بأجلى مظاهر الوضوح لمن تروى بعض التروي ولم يخلع على فطرته ووجدانه غشاوة الشك وظلمات المادة وشئونها . فلو تخطى صاحب الطلاسم مع شيخنا طاب ثراه لانتهيا الى كتاب الابرار ، وعرف منه لوح الخلود . ولما كان الخلود هو عالم مابعد الموت فاللحد هو الباب الذي منه يدخل اليه . فلذا كان المناسب ان يكتب ذلك على اللحد . ولكن ليس يدري من قال : لست ادري لأنه لم يتخطى السجن وما كسر القيود .

(٦٩)

لو تخطى معي الكون وجاوزنا الفضاء
وتسلقنا السماوات سماء فسماء
وانتهينا حيث ينسد طريق الانتهاء
لا لتقطنا شذرات العلم عما
ليس يدري

ومراده من تجاوز الكون ، تجاوزه بفضائه وبسمواته . ويتجاوزه ينتهي عالم المادة المنتهي بانتهاء طرفي المادة ، ذات الطرفين من بدء ذراتها الى آخر نقطة من سمواتها . وهناك نعرف انها بلا ريب انها حادثة ، ممكنة محتاجة في وجودها الى واهب الوجود الواجب بالذات . ومن هذا التخطى المنتهى الى ماوراء الماده ، ينتهون الى لوح العلم بالواقع والحق . ومنه يلتقطون الشذرات من اليقين والتصديق ، والمعرفة الحقة بما جهله من ليس يدري . القائل : لست ادري ولكنه لم يتخط ولذا كان لايدري .

(٧٠)

لو تركنا جانب الآفق وموجات الأثير
وقصدنا الروضة الغناء والغصن النضير
لرأينا السر مكتوباً على وجه الغدير
بسطور كاد أن يلمسها من
ليس يدري

يريد ان يقول :

ليس السر المنتهي بالناظر اليه الى اليقين مخصوصاً بشيء دون شيء بل هو موجود في كل شيء . فلو تأملنا في الروضة وما فيها من اختلاف الاوراد والاشجار مع ان التربة واحدة والماء واحد ، فمرجع اختلافها في اورادها واشجارها واثمارها هو الاستعداد المختلف في البذرة .

فأن لكل بذرة استعداد لأن يكون لها الورد الخاص ، والشجر الخاص والثمر الخاص .

فهل يصح ؟ في حكم الوجدان ان تكون هذه الاستعدادات التي لاتحصى قد وهبتها الطبيعة والمادة افلا ينبغي ؟ ان يكون واضحاً انها من هبة الواجب الخالق المكون .

فلو تأمل المتأمل في ذلك لوجد السر مكتوباً على الاوراق ، والاثمار والاشجار ، ولوجد ايضاً السر مكتوباً على وجه الغدير .

كما اشرنا الى ذلك فيما سبق وهذه الكواشف عن السر واضحة جلية وهذا هو المراد من قوله :

بسطور كادت ان تكون ملموسة لنظر من تأمل فيها . فهلا نظرها من ليس يدري ولو فعل لما قال لست ادري .

***

(٧١)

اتراه حين يستعرض وضع الكائنات
من جلال للفلك الاعلى وحسن للنيرات
ويراها بين جمع مستمر وشتات
تاركا مقصده الاسمى الى ما
ليس يدري

هذا الدور وجملة من الادوار التي تليه ليس فيها مايقتضي الشرح والايضاح بعد ان مرت الاشارة الى مايريده فيها مشروحة واضحة في شرح الادوار المتقدمة فراجع . وحاصله مجملا هو الاستفهام مستنكراً ؟ او متعجباً ! انه لماذا نرى صاحب الطلاسم انه لو استعرض الكائنات في هذا العالم التي منها الفلك الاعلى وهو فلك السموات ، وبما فيه من النجوم النيرة وعظيم خلقها بذاتها وجلالة تكوينها ، وعجيب مجاريها ! المنظمة بأعجب تنظيم واحكم ترتيب وهو حين يراها مختلفة الاحوال ،

فانها يجتمع بعضها مع بعض فتقترن وتتسامت . وتفترق وتتشتت . وكل مهما يسير في خطة على وضع مستقيم ثابت لاخلل فيه ولا بأقل من قيد شعرة ، ولا خطل ولا بأصغر من ذرة .

ومع هذا كله تراه تاركا ذلك وهو دليل واضح ، وبرهان ساطع ،

لا مرية فيه ، ولاشك ، عـلى خالق واجب الوجود بذاته تعالى شأنه ، وشأن ايجاده القويم ، وتدبيره الحكيم ، وفعله العظيم ، وهو المقصد الاسمى الذي اول مراحل عبادته . معرفته والتصديق به .

ولكن صاحب الطلاسم لم يسأل عقله وشعوره عن ذلك . وقصد بسؤاله مايقول عنه انه ليس يدري .

***

(٧٢)

اتراه حين يستقري شئوون العـــالم
من صبـــاح مستنير تحت ليل قاتم
ينضوي بعـد التروي للدليل الحـاسم
ويماشي قدم الحق الى مـا
ليس يدري

هذا الدور كسابقه . يلفت فيه نظر صاحب الطلاسم الى مايدله على الطريق . وهو بعض شؤن العالم من الصباح المستنير ، والليل القاتم المظلم ، كما في القرآن الكريم - لا الشمس ينبغى لهـا ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكـل في فلك يسبحون - فهل ترى ؟ صاحب الطلاسم لو تروى في ذلك اما ؟ كان متكفلا ان يوقفه على الدليل الحاسم للشك ، والمستلزم للتصديق واليقين ، وهل هو ؟ ينضوي بعد ترويه تحت ظل تلك الآيات البينة ، ويماشي قدم الحق من البراهين القاطعة ، والكواشف الصريحة ، فتأخذ بيده معترفاً واثقاً ، ومطمئناً هادئاً ، فتوصلة الى اليقين ولا يبقى هائماً مضطرباً تائهاً في ظلمات الشك خابطاً في طريق ملتو ، يسأل فيه من قال عنه : انه لست ادري .

(٧٣)

أغدق الكون شعاعاً ، فتخلله بنظره
وتصفحه جميعاً ، ذرة من بعد ذرة
وتحر دفتيه ، هل ترى فيه معره ؟
لست أدري وهو يرعاه لماذا
ليس يدري

وهذا الدور كالدورين المتقدمين . في الكون قد اغدق شعاعاً ملأ جميع صفحته ذرة ذرة من دقيقه الى جليله ، ومن ضعيفه الى قوية ، بجميع كائناته ومخلوقاته ، وعجيب ؟ ماعليه من البراعة المبهرة ، والبداعة المدهشة ، لا خلل فيها ولا معره لخر؟ من تحرى ذلك ساجداً لعضمته ، مصدقاً اقوى تصديق بربوبيته ، لذلك قال : شيخنا لست ادري لماذا ؟ من قال لست ادري وهو حين يتحرى هذا العالم المغدق بشعاعه . ويرعى مافيه من البيان الواضح . لماذا ؟ ليس يدري منتقلا من شك الى شك ، ومن وهم الى وهم ، ظلمات بعضها فوق بعض .

(٧٤)

ساءل القبر فجاشت فوقه ديدانه

وأتى للبحر فماجت حوله حيتانه

وانتحى الدير فخرت سجداً رهبانه

كلها تلهج بالسر ولكن

ليس يدري

يرجع هذا الدور مامر التنبيه عليه والاشارة اليه : من ان من سأله صاحب الطلاسم ، من القبر والبحر والدير . وادعى انه ليس يدري . ولم يحصل منه على محصل لم يكن الامر واقعاً كما ادعاه . بل ماسأله من القبر والبحر والدير لو نظر مافيها بدقة وروية ، وتحليل وانصاف الى مايوحيه له عقله وشعوره ، من الآيات البنيات . وقد مر بيانها فيما سبق لرآها كلها تلهج بالسر بصوت عال يسمعه كل من تفكر ، واعتبر وتدبر ولكنه لم ينظر كما ينبغي ان ينظر ولذا رجع لايدري .

(٧٥)

نخر الراهب لما أدرك السر وعربد
وتناجى للبحر والشاطيء في اللغز المؤبد
أدرك السر الذي أدركه العقل المجرد
وأذعاه كما شاء ولكن
ليس يدري

النخر هو مد الصوت والنفس من الخيشوم . وهذا ربما يحدث للانسان عندما يرى الشيء المنغمر . ويحدث له ايضاً اذا رأى الامر المعجب . ونخرة الراهب هنا لأنه ادرك السر الذي بهر عقله ، وادهش لبه . لجلالته وعظمته ، وجليل صنعته ، وسعة سلطانه وقدرته . والعربده هي افعال تبدو من الشخص تكشف عن فقدانه لعقله المنظم لحركاته وتصرفاته كعربده السكارى الكاشفة عن فقدانهم عقولهم ، وعربده الراهب هنا هي لأن السر الذي ادركه تغشى عقله اعجاباً ! واعظاماً . فلذا عربد مذهولا به ، ومدهوشاً بعظمته ، وما خوذاً بجلالته . ولو لم ينكشف السر له ويظهر له جلياً واضحاً . لما استكان الى شظف العيش ، وضيق القناعة ، ولاخذ من الدنيا بلهوها ، ولعبها ، وشهوتها ، ولذاتها ، ولكنه ترك الدنيا وما فيها ، مبتهجاً بمعارفه . في سبيل مرضاة ربه . فهل من الصحيح ؟ ان من قال : اني سألت الراهب فلم اجد عنده شيئاً مدعياً ان الراهب مثله ليس يدري . وقد سأل البحر والشاطي فرجع عنهما ايضاً

ليس يدري . وانهما هما ايضاً لايدريان . وليس الواقع كذلك ، فأن البحر والشاطي يتناجيان بالسر الذي جهله ، وقد جويا جهات تشير الى السر ، وتحلل اللغز الذي لم يتوصل لحله . فأن امكانهما ، وحدوتهما ، وتركيبهما ، ونفعهما ، والمصالح التى تترتب على وجودهما ، وآثار كل واحد منهما المختصة به ، وفي كل هذا منهما دلالة على السر ، واشارة اليه ، وهذا المعنى هو مراده من تناجيهما . وهو مراده ايضاً من ادراكهما السر الذي ادركه العقل المجرد . فأن العقل كما يخطر في ادراكه السر ، ويتمثل واضحاً عنده . فأن البحر والشاطىء ايضاً كذلك قد تمثل بما احتوياه السر واضحاً بيناً ، وأذاعاه ايضا . فأن المذيع كما يفهم المعاني بألفاظه المذاعة كذلك قد يفهمها بمظاهره فالبحر . والشاطىء قد اذاعا السر ايضا ولكن بما لهما من المظاهر الوجودية . ولكن صاحب الطلاسم لم يستمع لهذه الاذاعة ، الهاتفة بصوتها الوجودي العالي . ولذا قال لاادري

(٧٦)

ليس للبيعة رمز غير رمز المسجد
روعة النسك عليها ، وجلال المعبد
حكمت سلطان عقلي في لساني ويدي
وأزالت شبهات الجهل عمن
ليس يدري

البيعة هي متعبد النصارى ومحل عباداتهم . وهي عندهم كالمسجد عند المسلمين . والعبادة لما كانت هي الخشوع والخضوع ، والاستكانة للمعبود فلمحلها بالطبع روعة النسك ، وجلال المعبد . وهذان المصرعان واضحان واما المصراع الثالث وهو قوله : حكمت سلطان عقلي في لساني ويدي فلا بد من الاشارة الأجمالية لتبين كيف حكمت البيعة او المسجد سلطان في اليد واللسان . ولذلك نقول : لما خلق الله هذا العالم وجعله في كل شيء موجود فيه مشيراً الى خالقه ، ومحدثه وموجده ، وخلق الانسان وجعله ذا جهتين . جهة ظلمانية وهي جهة حيوانية وبهيمية : وجهة نورانية ، وهي جهة عقله وهي التي بها يستطيع ان يخرج من عالم الظلمة الى عالم النور . ولما لم يكن في وسع العقل ان يدرك كل مايمكن ان يوصله الى الكمال والنعيم في دار البقاء والخلود . فلان لا تكون للناس على الله الحجة ارسل الرسل وبعث الانبياء . هداة لتكميل المعارف ، وادلاء للناس لان يصلوا الى مايمكن ان يصلوا اليه من نور المعرفة . لينعموا في

النشأة الاخرى خالدين ، وشفع رسالاتهم بالمعجزات المثبتة لصدق دعوتهم وانزل معهم الكتب مملوءه بـما يكفى للعقل هادياً للحق ، والصراط المستقيم ، فلذلك كانت البيعة ومثلها المسجد محكمة لسلطان العقل عـلى اللسان واليد . فيحكم العقل على اللسان ، بأظهار التصديق ، والاقرار والدعاء وعلى اليد ، بالعمل في سبيل مرضات الله فتحسن ولا تظلم ، وتركع وتسجد . ليحصل الانسان على مايضمن سعادته في نشأة الخلود والبقاء ومما ذكرنا يظهر ان البيعة هي المزيلة لظلمات الجهل ، ورافعة لشبهاته بما في كتابها من نور الحق والمعرفة ، وهى التي تخرج من ليس يدري من الجهل الى العلم ، ومن الشبهات الى التصديقات ، ومن بهيمة الحيوانية الشيطانية الى انسانية العقلانيه النورانية .

(٧٧)

يابن أم النور أودى بك برج مسدف
عقمت أمك حتى ولدتك الصـــدف
أن تك للفوضى نظاماً ، فالدثور الهدف
فلقـــد يندك من يدري فيمن
ليس يدري

يحتمل ان يريد بام النور هي سلسلة الحياة الممكنة ، المنيرة بحدوثها ، واحتياجها عن قدرة واجب الوجود ، الواهب لها الوجود . فامه هي هذه السلسلة المنيرة المنتهية الى الواجب . وهو نور الوجود المطلق ، من غير حد ولا انتهاء . ويحتمل ايضاً ان يريد بام النور ، هي نفس قدرة الـواجب المنيرة بذاتها ، والداله بذاتها على ذاتها . كما تقدم بيان ذلك والاشارة في بعض الادوار السابقة . فهو ابن ام هذا النور ، وهي علة العلـل لجميع الممكنات . ولم يعرف هذه الام المنيرة من قال : لست ادري ولابد وان يكون قد اودى به برج ظلام الشك المسدف عليه . واسلمه الى الهلاك . وهو عدم المعرفة . واي هلاك انكى من الهلاك الذي ينعدم فيه اليقين ، الذي به يؤدي الانسان حق اول مرتبة شكر المنعم عليه باتـم النعم . والمتفضل عليه باعلى مراتب الفضل ، واي حياة اتم وانور من حياة التصديق بالله ، والاعتراف بجمال صفاته وجلالها ، وعظمة فعله وبركاتها ، وعجيب ! تكوينه ، وغريب مااودع فيه من مختلف القابليات

والامكانيات ، وبراعة التنظيم والتخيطيط . جل وتعالى شأنه مبدئاً ومبدعاً وخالقاً ومدبراً . ولماذا كانت هذه الام المنيرة عقيمة عند صاحب الطلاسم حتى صار يحتمل ان قد ولدته الصدف ، ودبرت نظامه فوضى الطبيعة والمادة . ولو كانت الصدفة هي المدبرة للعالم لكان نهايته الدثور والفناء : لا الخلود والبقاء . ولفنى لخلل نظمة وارتباكها قبل وقت فنائه ، ولزال قبل اوان زواله ، وقد اشار بالمصراع الثاني والثالث الى ماذكرناه . ولم يتبين لي مراد شيخنا واضحاً في المصراع الرابع - فلقد يندك من يدري . فيمن ليس يدري - وهل مراده من الاندكاك غلبة اهل الشك على اهل اليقين ، واهل الجهل على اهل العلم لان الجهل يلائم اللذة والتحلل من المثل العليا او غلبة الجهة الحيوانية البهيمة على الجهة العقلانية النورانية : او غلبة قوة الخيال والوهم الضالة غير الدارية . على قوة العقل المهتدية الدارية . والا فلا يندك النور في الظلمة . ولا العلم في الجهل ولا الرشاد في الضلال .

(٧٨)

ليتك استوقفت أوهامك لـو أغنتك ليت

أنا لا أدري الى أين فهل أنت دريت

ملأوا دربك شوكاً فامل مصباحك زيت

وتخط فعسى ان يهتدي من

ليس يدري

يتمنى لصاحب الطلاسم . ان يكون قد استوقف اوهامه . ولم يسير بسيرها ، ولم ينجرف بتيارها لو ان التمنى كان يغنى شيئاً . وكيف ؟ يغنى وهو مالا امل في وقوعه . ثم يقول : في المصراع الثاني عن نفسه انه لايدري الى اين تنتهي بك اوهامك وشكوكك ، ياصاحب الطلاسم وهي لا مرسى لها ولا مرفى . فهل انت ؟ ياصاحب الطلاسم تدري الى ايـن يكون الانتهاء . ولا يعقل ان تدري والتردد لانهاية له ، ولا آخر . ولما ملأ جمع الاوهام المظلم دربك شوكاً فينبغي لك ان تملأ مصباح عقلك بزيت التدبر والتأمل حتى لاتشاك . وامشي على ضوء هذا المصباح فعسى ان يهتدي به من ليس يدري فيعود يدري .

(٧٩)

قد يثور العقل جباراً على غير نظام
ودعاة الحرب قد تحمل رايات السلام
ليس يبدي النور الا فلك يبدي الظلام
لايجوب الكون مرتاداً سوى مـن
ليس يدري

لايخفى ان العقل بطبعه لا يتحرك الا عارفـاً كيف يتحرك . وذاته تقتضي الهدوء ، والسكينة ، والحلم والاناة ، والعدل والثبات ، ولكنه ربما يغضب ويثور . فيعود جباراً في قبال تمادي الجهل المركب ، وضلاله وفساده وانحلاله . لان الجهل المركب من طبعه الحرب والصراع مع الحق والتجبر على الهدى والرشاد ، ولكن الجهل البسيط هـو الذي في افقه يبزغ النور فتنحل به ظلماته . وهو الذي لايعاند الحق . لان لازم الجهل البسيط الاحساس بظلمة النقص ، والناقص الذي يحس بنقصه ، وبظلام افقه . يطلب بطبعه ان يسد ثغرة هذا النقص بالنور المشرق ، الذي ينحسر الظلام ازاءه . وهو الذي يحمل رايات السلام ، ولا يقف مصارعاً للحق ، ولا معانداً له . بـل يطلب ان يبزغ نوره في افقه ، ويلمـع شعاعه في محيطه ، وربما عاد الجاهل المركب جاهلا بسيطاً . وحينئذ تكون دعاة الحرب ، حاملة لرايات السلام ويعود فلك الظلام مشرقاً بنور الحق . ويحل العلم فيه محل الجهل . ولما كان الانسان في البداية جاهلاً

بسيطاً فينحصر ان يكون هو رائد النور . وهو الذي يجوب الكون مرتاداً ليبلغ النجعة المرديه . ومواقع الخصب الزاهية المغذية لروحانيته ، والمكملة لنقائصه ، والخالعه عليه ابراد الجمال الروحي . بنور العلم والهداية . وقد ظهر مما ذكرنا مصاريع هذا الدور كلها . وعرفنا كيف يثور العقل جباراً وان دعاة الحرب قد تحمل رايات السلام . وانه ليس يبدي النور الا فلك يبدي الظلام . وانه لايجوب الكون مرتاداً الى الحق . سوى من ليس يدري .

***

(٨٠)

قد تصفحت الجمادات وحللت السوائل

وأطلت البحث ماشئت فهل جئت بطائل

انت مسؤول عن السر كما انك سائل

فلقد أجهدت من يدري فيمن

ليس يدري

يقول لصاحب الطلاسم قد تصفحت سائلا الجمادات ، من الكوخ والقصر والقبر والبحر ، وحللت البحر بما فيه من رمل وصدف . واطلت البحث والسؤال . ولكنك رجعت معترفاً بان جهودك قد ذهبت سدى ولم تحصل على طائل ، مع طول بحثك ، وكثرة سئوالك ، وغفلت عن انك بذاتك ينبغى ان تكون مسئولا كما انك كنت سائلا . ولو سأل سائل عقلك ونوره . لاشكك وظلامه . لارشده الى السد وحـل اللغز ، وهدي الى الحق . ولكنك اهملته فاجهدته . وهو يدري وجعلته سائلا ممن لايدري . بمثل ماهو يدري .

(٨١)

لمن الشمس أطلت من شرافات السماء ؟!

لمن الشهب ترامت بين أحضان الفضاء ؟!

فطوته كيف شائت او طواها كيف شاء

فسيبقى حيث يبقى ، كيف يدري ؟

ليس يدري

قد مرّ مراراً بيان مايريده في هذا الدور ، في شرح الادوار السابقة وان المجموعة الشمسية ، وسائر مجموعات الكواكب الاخرى . التي تطوي الفضاء على نظام مستقيم . او يطويها الفضاء بما خطط فيه من خطوط سيرها . دليل واضح على صنع منتظم ، وتدبير محكم يستحيل ان يصدر عن غير فاعل ، او فاعل غير مختار . وسيبقى ذلك حيث قدر له البقاء . فكيف يدري انه ليس يدري من قال لست ادرى .

(٨٢)

هذه الاجرام تعدو بين أشباح الكراة
هذه الارواح تطفو فوق امواج الحياة
هذه الظلماء تحتك بجنب النيرات
هذه أنظمة العالم لكن
ليس يدري

يشير في هذا الدور كسابقه الى بعض نظم العام كسيد الكواكب . والارواح المخلوقة في الاجسام الحية والظلام الذي هو يجنب النور والضياء فان هذه الانظمة في العالم ، المدهشة للعقول والالباب . فيها الكفاية ان تكون دليلا واضحاً على عظمة بارئها ، ومجديها ، ولكن مع هذا كله ليس يدري بذلك من قال لست ادري .

(٨٣)

كن على الغصن هزاراً وعلى الموجة زورق
وإذا ماج ظلام النفس في النفس وأشرق
كن أخا الظلماء بدراً كلما اسود تألق
فعسى ينشق موج الشك عمن

ليس يدري

يأمره في هذا الدوران يستعلي على شكه ووهمه فينبغي ان يكون هزاراً صادحاً على اغصان الشكوك . وزورقاً طافياً على موجة الأوهام ، واذا ماج في النفس ظلام الشك فيها ، ثم تأمل المتأمل فلسوف يشرف فيها نور اليقين . فكن ياصاحب الطلاسم بين موجان الشك وانبثاق اليقين كـكرة القمر تمحق وتنير . ولا ينبغي ان تبقى اخا الظلمأ منمحقاً دائماً . بل ينبغي لك ان اخذك الشك بظلامه . انفلت الى نور عقلك ، بانعام النظر وتدبره . فعسى ان ينشق موج الشك في النفس ويظهر لها من أفقها اليقين ثابتاً راسخاً . ويعود من ليس يدري ان يكون يدري .

(٨٤)

ان ذاتي هي ذاتي لم تغيرها الصفات
هي من قبل حياتي مثلها بعد الممات
قطعت بين ضلال وهدى ، شوط الحياة
وهي في عهد صباها ، فالى كم
ليس يدري

يدلي بداية في هذا الدور بالنسبة الى خلق النفس . وللفلاسفة فيها اقوال .

منهم من قال بتقدم وجودها على البدن . وهو رأى افلاطون الألهى وشيخ الاشراقين . ولعل هذا ظاهر ماورد في الشريعة مما ورد - في عالم الذر - وانها المدعوه على لسان نبي الله ابراهيم الى حج بيت الله عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام . فمن لبى منها تلك الدعوة يحج في هذه النشأة ويلبي . وهي روحانية في جميع نشأتها وهذا رأي شيخنا في هذا الدور ، ويظهر بدواً من عينية الشيخ الرئيس في قوله : هبطت اليك من المحل الارفع ولكن المعروف عنه انه يرى رأى ارسطو كما سنشير اليه .

ومنهم من يقول : انها حادثة حدوثاً روحانياً . وتتعلق بالجنين في الشهر الرابع . وهو مذهب ارسطو شيخ المشائين ويقول : به الشيخ الرئيس لانه شيخ المشائين في الاسلام . وعلى كلا هذا من القولين هي

روحانية الحدوث ، روحانية البقاء .

ومنهم من يقول انها روحانية الحدوث جسمانية البقاء . وهو رأي التناسخية .

ومنهم من يقول :

انها جسمانية الحدوث . روحانية البقاء . وهو رأي صدر المتألهين . وتبعه المتأخرون . فالنفس الموجوده في هذه النشأة . روحانية البقاء عند الجميع عدا التناسخية .

وعلى كل حال فلا تغيرها الصفات بعد وجودها ، سواء كان وجودها اقدم من وجود الجسد . او بعد وجود الجسد .

ولما كان شيخنا يرى الرأي الاول قال : هي من قبل حياتي مثلها بعد الممات . ولما كانت في هذه النشأة معتركاً للضلال ، والهدى ، في حالتي شكها ، ويقينها ، فلا محالة تقطع شوط الحياة في هذه النشأه ، بين الضلال والهدى ، ولما كانت في سبيل البقاء والخلود . لا الفناء والدثور فهي دائماً تكون في عهد الصبا . لوضوح ان الخالدين لاهرم لهم ، ولا مشيب ، وهذا ثابت للنفس في محله بالبراهين الواضحة . عدها خوند صدر المتألهين في اسفاره احد عشر حجة . وعدها السبز واري في في منظومته عشرة . لان الحجة الثانية هي الحجة الاولى باختلاف يسير . كما نبه على ذلك صدر المتألهين فراجع . ولو رجع اليها صاحب الطلاسم لدرى . فلماذا بقي ليس يدري .

(٨٥)

أنا من كوة هذا الكون شاهدت الطريق

أنا جازفت بسيري مـن مضيق لمضيق

فإذا بي من أنيق الصنع في روض انيق

واذا فيه كمـا شـاء هـواه

ليس يدري

يقول شيخنا في هذا الدور عن نفسه : انه من كوة هذا الكون ، والتدبر في احكامه ، واتقانه . شاهدت الطريق الصحيح بعقلي وعرفته وانه جازف بسيره في البحث . ودخل مضايق الشك . وخلص منها الى اليقين مضيقاً بعد مضيق . فإذا به قد انتهى بسبب انيق الصنع المتقن ، الدال على جلالة سلطان واجب لوجود . وعظيم قدرته الى اليقين الثالث الذي تبتهج به النفس كما تبتهج بالروض الانيق . ولكن صاحب الطلاسم لم يسر كسيره . ولم ينظر بمثل نظره ، ولم يسترشد عقله ، ولم يستضيء بنوره . يتخبط في الظلمات شاكاً ، ومتردداً ليس يدري .

(٨٦)

أتراها كل آن ترتدي ثوباً جديد
فهو طوراً من حرير ، وهو طوراً من حديد
فأنا منها شقي ، وأنا منها سعيد
بين خوف ورجاء ، وهو لاه
ليس يدري

يصف في هذا الدور تطورات النفس . بما تقطعه في ادوار الحياة ، وانها في كل دور تلبس ثوباً جديداً ، فهي في دور الصبا تلبس حرير الشباب ومرعته ، وهو دور الغرور والشهوات . واذا تقدمت في الحياة ، جاء دور الحنكة والاحكام ، فتلبس من تجاربها ، ومعارفها ، ثوباً من حديد ، ولذلك كان منها في دور شقياً . وفي دور سعيداً . وهو من جراء هذين الدورين بين خوف ، ورجاء . وصاحب الطلاسم لاه في شكه ليس يدري .

(٨٧)

فهي كالبلبل تشدو ، وهي كالورق تنوح
وهي كالزهرة تزهو وهي كالعطر تفوح
وهي كالنسمة تغدو حين تغدو وتروح
أنا إن ادر فـــكم من المعي

ليس يدري

يعدد في هذا الدور بعض حالات النفس ، من فرحها ، وحزنها ، فتكون فرحة شادية كما يشدو البلبل ويغرد . وحزنة باكية كما ينوح الورق ويبـــكي . وتكون كالزهرة رونقاً وكالعطر الطيب شذى ، وكالنسيم البليل غدواً ، ورواحاً . كل ذلك من حالات ادراكها الدال ادراكها ببساطته على بساطة افقه ، ومحله النفس . والبسيط المـتحصل بالوجود لاتركيب فيه . وكـــل مادي مركب . فان المادة والهيولى الاولى وان كانت بسيطة الا انها لامتحصلة الا بالصورة . فلو فرض ان لا صورة تطرأ عليها ، لما كان لها وجود .

واما البسيط المتحصل بوجوده فليس بمادي . ولا فناء له بعد وجوده اذ الفناء لايكون الا بانحلال اجزاء المركب . والموجود الذي لاتركيب فيه لافناء له . فالنفس اذاً لافناء لها . يقـــول : شيخنا كل ذلك انا ادري به وايقنت بانها خلقت للفناء لا للبقاء . فهل تنتقل من نشأة زائفة الى نشأة حقة . ومن عالم تغيير ، وتقلب ، الى عالم ثبوت واستقامة ،

ومن غفلة الى انتباه ، ومن نوم الى يقظة ، ومن حجاب الى شهود ، ومن عالم موت ، الى عالم خلود . يفوز فيه اهل اليقين وهم المقربون ، الذين لهم روح وريحان ، وجنة نعيم ، وهم اصحاب اليمين . وحسبهم الفلاح والنجاح والبهجة والسرور . ان عليهم سلام من ربهم كما قال عز من قائل ومتفضل - واما ان كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين -

فدرى بكل ذلك شيخنا، وكم من المعي ليس يدري به كما قال في المصراع الرابع من هذا الدور انا ان ادر فكم من المعي ليس يدري .

***

(٨٨)

رسفت في القيد حتى استسلمت من غير قيد
وانبرت حيث حداة الوهم تحدوها رويد
حسبها قد اغلت القدر ومـا في القدر صيد
حسبها حفزت الركب الى ما
ليس يدري

بصف في هذا الدور النفس الشاكة . يقول عنها :

ـ انها رسفت في هـذه النشأة في قيد الشك والوهـم حتى الى مابعد الموت . وحينئذ تستسلم بعد ان يفوت الاوان مطلقة ، من غـير قيد لانفكاك قيد الشك عنها حينذاك .

ويحتمل ان يريد باستسلامها من غير قيد هو ان بعد ان انقادت مغلوله للشك اولا الفته ثانياً واستسلمت له من غير قيد .

وانبرت في هذه النشأة تسير حيث يحدوها حداة الوهم فى طريق شائك مظلم غير واضح .

وبالطبع من سار في مثل هذا الطريق يكون سيره مهلا ورويداً رويد وحسبها خسارة وعناء انها قد اغلت القدر ولـكن ليس فيه صيد ، لأن الصيد كله في عالم اليقين والمعرفة .

واما عالم الشك والوهم فخال فارغ لانه لم ينته الى شيء ولـم

يحصل على محصل . وهل في الاحتمال المحض شيء سوى كونه احتمالا وترددا يذهب في فراغ . ويرجع الى فراغ ، اذ ليس في وادي التيه من رشاد ، ولا في بهماء الوهم من بلاغ . وحسبها فشلا وجهداً ان غاية ماحصلت عليه هو ان حفزت الركب ان يسير الى ماليس يدري ، يخبط خبط عشواء ، ويسير على غير اهتداء .

***

(٨٩)

عصفت نكبـاء فندك بها كـل مشيد
وسرت هوجاء تجتاح الفلا بيداً فبيد
وتنزت فاستفزت ثورة العقل السديد
بعد ما استسلم مقسوراً الى ما
ليس يدري

يقول ان ريح الشك والجهل نكباء ، يندك بها كل مشيد ، واعصاره لايبقى ولا يذر . وذلك لان الشك كما انه تعطيل لعمل الجوانح عن ادراك اليقين ، ومانع عن اشراق نور المعرفة في افق النفس . كذلك يعطل الجوارح عن عملها العبادي . فان الشاك في وجود الآمر لايهتم في أوامره . فلا يؤدي واجباً ، ولا يتورع عن ارتكاب محرم .

فهل هناك ؟ شيء لا يأتي عليه الشك . واي شيء ؟ يبقى مع تعطيله للشخص عن اي عمل ، يضمن سعادته . فلا نور له في مقام روحانيته ولا عمل له يستحق عليه الثواب في آخرته .

ولما لم يكن للشك مقر ، ولا مستقر ، فهوجاء نكبائه لاتزال تجتاج الفلا بيداً فبيد ، لاتنتهي الى محل تهدأ فيه .

ولما كان الشك مركزه التخيل . دون العقل المستقيم ولكن هذا العقل السديد ربما استفزته وحركته نكباء الشك الهائجه فيثور في

قبالها ويأخذ عليها طريقها ويرد النفس الى مقرها من اليقين في جوانحها .

والعمل العبادي في جوارحها ، بعد ما استسلم مدة من الزمن مقسوراً باضطرابها وهيجانها الى ماليس يدري .

فيعود بعد ذلك دارياً مهتدياً بالعلم والبراهين . كما سيشير اليه في الدور الآتي :

***

(٩٠)

غمـرتها موجة العلم فما هـذا الرهـج
بعد محبوك البراهين ومسبوك الحجـج
فلقد يفضح من قد كتم المسك الارج
ودليل الشمس نور الشمس ، لكن

ليس يدري

يريد ان العقل السديد يغمر بعلمه هذه النكباء . فتسكن ، ويستنكر عليها هذا الرهج بما يدركه من محبوك البراهين ومسبوك الحجج . ولما كانت النفس في زوبعة شكوكها .قد حجبت العقل عن ان يفوح عطراً بمدراكه ومعارفه . لذلك ربما يبدو شذاه الطيب . ويكون حينئذ كالمسك المكتوم ، الذي يفضح اريحه وطيب ريحه الوعاء الذي كتمه ، والعلبة التي اختزنته ، ثم يقول : ودليل الشمس نور الشمس . وهذا يحتمل وجهين .

الاول يريد ان يشبه العقل بالشمس . ومدراكه هي منه كـنور الشمس للشمس فيكون هذا النور العقلي من المعارف دليلا على العقل كما ان ارج المسك دليل على المسك .

الثاني ان يريد بنور الشمس ، هي محبوك البراهين ومسبوك الحجج التي اهتدى بها العقل ، فوصل الى اليقين والمعرفة ، وحصل على موجة العلم التي غمرت رهج الشك . ولكنه ليس يدري بذلك ، من لم يلتمس ذلك وبقى لايدري قائلا لست ادري .

* * *

(٩١)

رحمـــة بالعالم الحـــيران يابن العالم

لاتجشمـه التنزي بالطريـــق القاتـــم

عصفت زوبعة الشك بصرح قائـــم

وأحالته كمـــا تـــهوى الى ما

ليس يدري

لما كان الناس في هذه النشأة مغمورين بالمادة ، ونزعاتها ، ومقتضياتها وشهواتها . ولما فيها من الانطلاق في اللذات : وما هو طبع النفس البهيمية ، من الظلم والفتك ، وفرض الغلبة والقهر ، من الغالب عـــلى المغلوب ، والامرة للقوي على الضعيف .

فالنفوس بحسب الطبع البهيمى ماثلة لنزعة الشك . هذا مضافاً الى ان الانسان في اوله جاهل . فاذا رأى فكرة الشك عند من يراهم بنظره علماء ، مقتنعين بفكرة الشك والتردد ، فسوف ينجرف بها ، ويتيه في حلكة الظلمات ، وينضوي الى الطريق المظلم القاتم المسدف ، وتعصف به زوبعة الشك ، فتطيح بكل مافي استعداده من صرح قائـم ادركه بفطرته ووجدانه ، الذي لو خلي وطبعه ، لأوصله الى الحـق ولهداه الى سواء الطريق . فرحمة ياصاحب الطلاسم ، بمثل هؤلاء البسطاء من اشاعة الشك والتردد في تفكيرهم ، بالالفاظ العذبة ، والخيال الرقيق والنظم المنسجم ، فانه اعني الجاهل ، سوف تسحره النغمة الخيالية ،

الخلابة الخداعة . وتحيله كما تهوى شاكاً متردداً ، مدافعاً عن الشك ، وصابياً اليه ، وينضم الى ما ليس يدري .

بعد ان كان بطبع استعداده يمكن ان يدري . وتؤخذ انت بإصاحب الطلاسم بذنبه لان السبب اقوى من المباشر . والمغرور يرجع الى من غره

***

(٩٢)

لم تباركنا القوافي بطريق مبتكر

لم تجل في حلبات ، لم تجل فيها الفكر

نعرة شبت وشابت بين أحضان البشر

واستوت في غارب الجهل الى ما

ليس يدري

يقول في هذا الدور أن فكرة التشكيك ، لم تكن مبتكرة ، ولم يخترعها صاحب الطلاسم . وانما هي فكرة قديمة ، اكل الدهر عليها وشرب . فلم تجل فكرتك في حلبة جديدة ، وميدان طريف . فقد جالت فيها قبلك فكر وفكر وكم قال قائل قبلك : - لم يخلقنا الا الدهر - أأذا متنا وكنا تراباً وعظاما أنا لمبعوثون - وكم ورد امثال هذا الكلام في القرآن الكريم ، والكتب المقدسة ، وغيرها من كتب العلماء ، قديماً ، وحديثاً . فهي فكرة مولودة من قديم . وكم مر عليها من القرون ، حتى اصبحت هرمة بين احضان البشر ، واستوت متوطنة في غارب اهل الجهل اخذة بخناقهم ، دافعة بكل واحد منهم الى ماليس يدري .

(٩٣)

فكرة قـد ولدتها أمهـات السـدم
أدركتنا مـذ تخطت طبقات الامم
كم أديلت في دماغي ، واستديرت في فمى
واستقلت تترامى فى محيـط
ليس يـدرى

هذا المصراع الاول يحتمل وجهين

الاول ان مراده من امهات السدم ، وهـي الذرات المنبثة في الفضاء كناية عن القدم . وان هذه الفكرة قديمة بقدم هذة الذرات . فلا تحدث نفسك ياصاحب الطلاسم بانها فلسفة جئت بها طريفة مبتكرة .

الثاني انه عنى بقوله : قـد ولدتها امهات السدم . هو الاشارة الى منشأ هذه الفكرة ، وهي التي صرح بها ديمقراطيس ، من ان اصل العالم ذرات صلبة ، لاتنقسم ولا تتجزأ . وهي الجوهر الفرد في اصطلاح الفلاسفة الجدد . ولمـا تخطت طبقات الامم الى الرقي ، وكان الرأي السائد هو الرأي الحق المبرهن عليه . اراد المبتلون منهم بداء السمعة والشهرة ، من باب خالف لكي تعرف لاجل حب الظهور ان يقولوا : بخلاف فكرة الحق في عصورهم . ليدعوا الى التجديد في كـل شي : فايدوا فكرة الشك والوهم كفكرة جديده . وليست بجديدة . بل هي من اقدم القدماء . وعلى كل حال فقد تداولت الامم المتخطية الى الرقي

هذه الفكرة . واصبحت يلوكها لغط الناس بكثرة . ولذا قال شيخنا : كم اديلت في دماغى ، واستدبرت في فمي ، لما اسمعه من اللهجين بها . وادورها في في مقام اقناعهم وردهم عن غيهم ، واشعارهم بالطريق السوي المستقيم . وفي بعض النسخ - كم اديلت في دماغ واستدبرت بفم - بالكسر في كل من كلمتي الدماغ والفم ومنعاه على هذا اوضح لانه يريد بيان قدمها وتداولها في افواه المشككين في سالف العصور وحاضرها . وراجت هذه الفكرة الضالة عند اهل الجهل ، وفي المحيط الذي ليس يدري لما قدمنا من السبب الداعي لشيوعها ، والانضواء اليها .

* * *

(٩٤)

نضبت عين حياتي ، فتجهمت السرابا
ومحى شكى يقيني ، بعد ما شبت وشابا
واذا البلبل امسى واجماً اضحى غرابا
وإذا احجم من يدري انبرى من
ليس يدري

يريد ان يقول في هذا الدور ان ما اديل في دماغي ، واستدار في فمي من الفكرة التي ولدتها امهات السدم ، وادركتنا بسبب تخطي طبقات الامم : فكرة غير مقبولة عندي ولا مرضية . وهي واضحة الفساد والبطلان ، لدى عقلي ، وعقل كل عاقل . ولذلك انبرت لنقد الطلاسم والدفاع عن الحق . وما كان لي ان اسكت عنها ، واعرض عن جوابها وعن بيان مواقع الضعف فيها . لضعف منشأها وتفاهته وركاكته وسخافته ولا عذر لمن يعلم بالحق ان لايصدع به ، ولا يدل عليه . والا كان مقصراً في واجبه . بل هو من العالم ذنب لا يكاد يغفر ، وزلة يوشك ان لاتغتفر ، ويلزمه العقل والوجدان . ان يكون بلبلا شادياً بنغمة الحق ومغرداً بانشودة الصلاح ، والاصلاح . ومهيباً بالمجتمع الى نور الحق ، والسراط المستقيم ، وان سكت كان غراباً فى مجتمعه ، وشؤماً عليه . لان سكوته مصادقة منه على فكرة الضلال . الناقصة لعمارة الهدى وشيد بنيانه . وتأبيداً للباطل وعظيم اوزاره ؛ وقد صدع شيخنا فيما مضى من

(اثباجه) وفيما يأتي بالحجج اللامعة ، والبراهين الساطعة ، مافيه الكفاية المقنعة ، لمن وعى بعقله وانصف . ونظر نظرة من يطلب الحق ويريده او القى السمع وهو شهيد . وقد صرح بما ذكرنا من ان الواجب يقضي على العالم ان ينطق بالحق ، ولا يسكت عن الباطل بقوله : في المصراع الثالث - واذا البلبل امسى واجماً اضحى اغراباً - وابان ان سكوته فتح باباً للاضلال بقوله : واذا احجم من يدري انبرى من ليس يدري . فتشيع فكرة الشك والضلال ، وتتردى فيها النفوس الساذجة ، وانكار البسطاء . وعلى كل حال فالمصراع الاول من هذا الدور قد حذف فيه همزة الاستفهام ، والتقدير أنضبت عين حياتي فنجمت السرابا ؟ وهمزة الاستفهام تحذف حيث تقوم القرينة على حذفها ، وهذا جار مجرى قول الشاعر فوالله ما ادري وان كنت داريا ، بسبع رمين الجمره ام بثمان - اي أبسبع رمين ام بثمان . والفاء في قوله فتجهمت السرابا هي رابطة لجواب الاستفهام . كما تقع رابطة لجواب الامر في مثل زرني فاكرمك وهذا من معان الفاء التي ذكرها النحويون وهذه الفاء هي المسماة عندهم بفاء السببية . والمتحصل من هذا المصراع الاول ان تلك الفكرة بنت ام السدم . قد طرقت دماغي ، واستدارت في فمي . ولكنها واضحة البطلان عندي . وكيف لا تكون واضحة البطلان . وعين حياتي التي هي منبع النور لم تنضب ، وما غار معينها العذب ، وهو التصديق الثابت ، والجزم المتركز . وانا مرتو دائما به ، ولم اظمأ حتى اتجهم سراب الشك والوهم .

والاستفهام اذا كان انكارياً ، او تعجبياً ، كان بحكم النفي فيرجع

قوله أنضب عين حياتي الى قوله ـ مانضب عين حياتي ـ ومثله الحال في المصراع الثاني وهو قوله ـ ومحى شكي يقيني بعدما شبت وشابا ـ فان تقديره وأمحى شكي يقيني . وهيهات ان يمحو شكي يقيني بعد ما شبت وتهرمت . والحق واضح لدىّ ونصب عينىّ . ويقيني بطبيعة الحال قد شاب معي ايضاً وتركز . فلا يمحو شكي يقيني .

***

(٩٥)

زعموا ان كـتاب الدهر لغز وطلاسم
ومعـان مبهمات صدرت عنها العـوالم
كـبرت ان تتحداها شروح وتراجـم
وطغت حتى على العقل فأضحى
ليس يدري

يذكر في هذا الدور مقالة الشكاك : فانهم زعموا ان ليس هناك دليل واضح على ان العالم صادر عن الواجب القادر المختار . ويجوز ان يكون وليد الصدفة والعديم . وان الدهر عبارة عن كتاب كله لغز وطلاسم . وانه ليس هناك الا معان مبهمة ، صدرت عنها العوالم المتقدمة من غير ان تنتهي الى حل اللغز وبيانه . وان هذه المبهمات كبر مجالها ، وتحدى الشروح والتراجم ان توضحها وتبينها وطغت هذه المبهمات حتى على العقل فاضحى ليس يدري . ولكن لم نعرف اين اللغز والطلاسم في كتاب الدهر . والدهر كله آيات بينات على جلالة موجده ، وعظيم قدرته . وهل ان ؟ امكان الممكنات الموجودة هو اللغز والطلاسم وامكان الممكن دليل وجوب علته . والا لزم الترجيح بلا مرجح . ومرجعه الى وجود المعلول بما هو معلول من غير علة . وهو بديهي البطلان . واذا انتهى الشك الى البديهي تعقم كل فهم ، وانسد باب كل علم . والشك في بداهة استحالة وجود المعلول من غير علة كالشك في

ان الكل اعظم من الجزء . والنقيضان لايجتمعان ولا يرتفعان وامثال هذه البديهيات والضروريات ، مضافاً الى ما مرت الاشارة اليه من ان الفلاسفة الماديين ، والألهيين ، تطابقت اراؤهم عـلى ان موجد العالم لابد ان يكون ـ واجب الوجود ـ قديماً بذاته . وهو اما ان يكون مادياً ، او مجرداً . لان العدم المحض لايحدث شيئاً بضرورة البديهة عند كل احد . اذ لو فرضنا أحضرنا وعاء مفرغاً من كل مادة وطاقة . وقد احـكم أغلاقه بحيث لايتسرب اليه من الخارج شيء . فهل يصدق ؟ ذو شعور او يجوز ان يحدث في فضائه الداخلي المفرغ من كل شيء شيء . كلا لايشك احد ولا يرتاب بانه لايحدث فيه شيء . وهذا امر بديهي لدى كل ذي شعور . فلم يبق الا المادي ، والمجرد .

فاذا ثبت بالبرهان استحالة ان يكون الواجب الوجود بالذات مادياً . تعين ان يكون مجرداً غير مادي .

واما البرهان على استحالة كون واجب الوجود بذاته لايعقل ان يكون في وجوده محتاجاً . لان احتياجه في وجوده ينافي وجوب وجوده ، وقدمه لذاته لان فرض احتياجه في وجوده الى شيء يـلزمه كـون ذلك الشيء المحتاج اليه له دخل في عليه وجوده . والا فـلا معنى لاحتياجه اليه . فلا يكون من له الاحتياج قديماً بذاته . بل يكون مسبوقاً بوجود ماالاحتاج اليه . وعلته هي القديمة . لاهو . فلا محالة لابد وان يكون القديم بذاته غير محتاج في وجوده الى شيء .

والمادي لابد وان يكون اما جوهراً او عرضاً . ولا يعقل ان يكون عرضاً . اذ لا استقلال للعرض في الوجود . بل لابد وان يكون موجوداً

في المحل . لبداهة ان اللون مثلا لايمكن ان يوجد بما هو لون الا ان يكون مسبوقاً بالموضوع الذي تلون فيه . فينحصر ان يكون جوهراً. ومنه تعرف ان الطاقة لايعقل ان تكون واجبة الوجود وقديمة بالذات . لانها اما ان تكون جوهراً شفافاً او عرضاً . وحيث عرفت انه لاقدم للعرض فلا بد وان تكون جوهراً . ويستحيل ايضاً ان يكون القديم جوهراً مادياً . لان الجوهر المادي مركب من الهيولى والصورة . فهو ذو جزئين ،

احدهما لامتحصل وهو الهيولى .

والثاني محصل وهو الصورة .

وكما ان اللامتحصل محتاج في وجوده الى محصل يحصل وجوده ؛ فان المحصل بما هو محصل لايعقل وجوده ، الا بان يكون محصلا لما يتحصل به .

فاتضح ان المركب من جزئين فضلا عن ان يكون مركباً من اكثر من جزئين لايعقل ان يكون قديماً بذاته . لان تركيبه من جزئين فرض احتياج كل جزء الى الجزء الآخر . وقد عرفت ان الاحتياج ينافي العدم ، فتعين ان يكون واجب الوجود بالذات مجرداً عن المادة .

وهذا بحث مختصر يناسب ما بايدينا . والا ففي الموسوعات الفلسفية براهين وافية ضافية على ذلك فراجع . ولا يسعنا التعرض لتفصيلها في المقام لان الغرض التعليق بنحو الاختصار على اثباج الطبيعة لا تأليف موسوعة في الفلسفة .

(٩٦)

تلك انشودة قرن طربت منهـا قـرون
لفظتها من فـم المهد الى حضن المنون
سنة للـكون ، فماذا يتلافى المصلحون ؟
ولبيت القوم قد خولط في من
ليس يدري

ينقسم المغمورون في المادة وشئونها الى قسمين ، غر جاهل ، ومثقف والغر الجاهل ميال بطبعه الى الانطلاق في ملاثمات شهواته . ولذا فهو يرى نفسه حراً منطلقاً ، اذا كان المـوجد له هو الماده والصدفة . وان لانشأة له الا هذه النشأة : فيتمحض لكسب لذاته ، واشباع شهواته ، من دون قيد ولا شرط .

واما المثقف كصاحب الطلاسم واضرابه ، فقـد ضربت المادة ايضاً حجاباً على عقولهم . فتخبطوا في الشك . والتمسوا الغاية من غير طريقها وخولطوا في اراكهم . فلا محالة لم ينتهوا الى شيء . وصاروا يتمنطقون بقول لا ادري ، ولست ادري . ويشيعون هذه الفكرة باساليب مختلفة ، ويصبغونها بصبغة الرقي والتطور . وينبزون غيرها بالرجعية والجمود . فهل يريدون ؟ ان يظهر الله لاعينهم فيلمسوه ويصافحوه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وقد ضلوا واضلوا . وان هذا منهم لظلم كبير وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .

وعلى كل حال فهذه الفكرة ظهرت في القرون القديمة عـلى لسان الماديين كديمقراطيس واتباعه ، وطربت لها القرون المتأخرة عنها ، والداعي لهم مامر ذكره مـن ملائمتها للشهوات واللذات ، ولما كان الميل الى الشهوات هي الطبيعة الاولى للانسان ، بواسطة جهته البهيميه الحيوانيه ، ولذلك لفظتها القرون من المهد الى اللحد واصبحت كسنة في هذا الكون المادي ، فماذا يتلافى المصلحون ، فان غاية ماعندهم ان يدعوا الى الحق ويجهروا به ، ونزعات المادة وشهواتها قد وقفت كسد دونهم . ويحتمل ان يريد بلبيب القوم الذي قـد خولط فيمن ليس يدري هو المثقف كصاحب الطلاسم . ويحتمل ان يريد به المصلح الذي اندهش لما يرى من فكرة الضلال السائد في المجتمع من دون سبب مبرر لذلك .

* * *

(٩٧)

نعرة جاشت ، فجاشت نعرات لي أخر
وتـولت فتـولت زمراً بعـد زمـر
قبـل أن أعقد منهـا حلقات المؤتمر
قبل أن أدري بأنى في محيط
ليس يدري

يستعرض في هذا الدور طبيعي مايدور في الفكر في حالة الجهل البسيط البدائي للانسان . فانه بدءً قد يشك في موجد العالم ، ويلزمه عادة الشك في تدبير العالم وحركاته وتصرفاته . هـل هي ؟ عن اتقان مدبر حكيم . او كانت صدفة . والشك ايضاً في حياة الاحياء ، وموت من يموت ، والشك ايضاً في الاستعدادات والقابليات المنبثة في نباته واشجاره .

والشك ايضاً في ان هل وراء ؟ هذه النشأة اخرى ام لا ، وامثال هذه التشكيكات المتسلسلة والمتولده بعضها من بعض . ولكن سرعان ماتمر كحلم عابر عندما يرجع الشخص لعقله ، ويهتدي بهداه ، او يبحث ويدرك البراهين الثابتة المزيلة لهذه الشكوك باجمعها . واشار الى خطورها بدائيا بقوله في المصراع الاول نعرة جاشت فجاشت نعرات لي اخر . واشار الى زوالها وارتفاعها بقوله في المصراع الثانى وتولت فتولت زمراً بعد زمر قبل ان تركز فاعقد منها حلقات وموتمرات تذهب بالفضائل .

وتهيب بالرذائل . ولما كانت الحالة بدائية وسرعان ما زالت قال كان ذلك قبل ان ادري ان لهذه الشكوك تركز في نفوس جماعة من البشر . والى هـذا اشار بقوله قبل ان ادري باني في محيـط ليس يدري . ويحتمل ان لايكون قد خطر له هذا الـتشكيك ولو بنحو البداية ، وانما هو على سبيل الفرض والاقتضاء الطبيعي في عامة الناس . وقد ذكره تمهيدا لما يشير اليه في الدور الآتي مما يدل برهاناً ، ويفضي حجة ببطلان هذه الشكوك .

***

(٩٨)

ان تلك الازهار تبدي العطر من غير اختيار
وسحاب الافق يهمي مكرهاً فوق القفار
ونبات الروض مدفوعاً بداعي الاضطرار
فمن القاسر ؟ هل يدري به أم
ليس يدري

يذكر في هذا الدور ثلاثة اشياء من بعض مافي العالم مقسورة على انتاجها وافعالها . الازهار التي تبدي شذاها من غير اختيار منها . ولابد لها ان تفوح بعطرها وشذاها ، والسحب التي تهطل وتهمي بدرها ومطرها ونبات الارض ينمو ويندفع بسيقانه واوراقه لامناص لها الا ان تفعل ذلك فمن القاصر ؟ لها على افعالها . لان الفعل اما عن ارادة واختيار او عن قسر واجبار .

وحيث انها بالضرورة ليست فاعلة بارادة واختيار بحيث ان شاءت فعلت وان لم تشأ لم تفعل . فلا بد من ان تكون مقسورة وحينئذ لابد من قاسر لها لبداهة استلزام القسر للقاسر ، وهو احد مصاديق استلزام المعلول للعلة . ولا يخلو القاسر عن فردين . اما ان يكون هو الطبيعة والمادة غير الشاعره ولا المختاره . وهذه الافعال المنظمة ، والاثار المتقنة والتصرفات المحكمة ، لايستطيع العقل والوجدان والانصاف والتثبت ان يمنحوها للمادة ، التي لاتملك لنفسها خيراً ولا شراً ، ولا نفعاً ولا ضراً

وفاقد الشيء كيف يعطيه ، فانها بذاتها فاقدة لمعرفة التنظيم الدقيق ، والتدبير المتقن فيتعين ان يكون القاسر هو الحكيم القدير . ولذا قال : فمن القاسر هل يدري ؟ به من قال لست ادري ام ليس يدري . وطبعاً ليس يدري لاقراره بانه ليس يدري . فيكون ممن عطل عقله وادراكه وحسن التفاته . وعـــدل انصافه وجزم تثبته . واخرجته نزعته الحيوانية البهيمية من نور العقل ، الى ظلمة الجهل .

***

(٩٩)

إن أكن كالبحر مغموراً باصداف ورمـــل

او تميزت عـــن الجبار في ظـــل وعقـــل

فسيطوي بعد حين عن سجل الكون مثـــلي

وسينحل أبـو الهـــول الى مـــا

ليس يدري

مراده من الانغمار بالاصداف والرمل الكناية . اما عـــن لؤلؤ العقل المنطوي في صدف ادراكه . وعن خزف الشك المصنوع من تخيلاته : واما عن نور العقل اللماع كالصدف . وعتمة الشك التافه كالرمل : واما عن ثمر اليقين الثمين الغالي بنتائج الخير والسعاده كالصدف . ونتائج الشك الرخيصه كالرمل . واما عن عظيم اكسير اليقين وفوائده : وحقـارة مايستفاد من الرمل ومهانته . او غير ذلك مما بين اصداف اليقين . ورمال الشك ، من الاختلاف مـــن الثروة والفقر وربما اراد بالاصداف والرمل مقابلة اهل اليقين بالاجلال ، والاكبار ، والاعجاب ، ومقابلـة ارباب الشك بالتفنيد والتنديد . كما يقال : بفم المخطي التراب . ويمكن ان يريد غير ماذكرنا من المحاسن والمساوي المتقابلة .

والحاصل اني ان اكن ساويت البحر في ان لي مثله اصداف ورمل فلقد تميزت عنه بشيئين وهو ان لي ظلا وعقلا . فان الانسان عبارة عن بدن ونفس . والظل من اثار البدن . والعقل من اثار النفس . فانا مخلوق

اخر لانه ليس للبحر بكله ظل وان كان لبضعه كامواجه ظل . ولعله انما اختار خصوص الظل من آثار البدن المميزة له عن البحر مع ان للبدن اثار اخرى مميزة كنموه ، وذبوله ، وحركاته الارادية ، وسكونه بالاختيار وجماله ودمامته ، وغير ذلك من اثاره المميزة له لانه اراد ان يذكر مميزاً للبدن عن البحر من ناحية جماديته . لامن نواحي ناميته وحيوانيته . ثم ذكر مميزة من ناحية غير جماديته . واختار افضل اثاره وهو العقل . ثم ذكر بعد هذا انه انا والبحر نتساوى من جهة . ونتميز من اخرى في حال كوننا موجودين ، لكن لا ميزة لنا من ناحية الموت والفناء فان البحر يفنى ويموت . كما افنى واموت . وفي هذا تتساوى كل موجودات هذه النشأة . وايضاً فان ابا الهول القائم فعلا سوف يدركه الفناء وينحل .

وقوله : الى ماليس يدري يحتمل ان يريد به عدم دراية ابي الهول بانه الى اين مصيره . ويحتمل ان يريد عدم دراية صاحب الطلاسم بان مصير هذا الكون باجمعه الى الفناء . لاكما يحتمله الشاكون من انه لابداية للعالم ولا نهاية .

(١٠٠)

ان يك المرء كما يزعـم في صحو جميـل
وانتباه لا ذهول عـن مناف ومثيـل
فلماذا الشك والحيرة والصمت الطويـل
ولماذا يقطع الدرب اعتسافاً
ليس يدري

يقول في هذا الدور ان صاحب الطلاسم يزعم انه على أتم حال من انتباهه كما قال : معترضاً بقوله فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل . فهو اذن عـلى كمال من شعوره ، وانه واقعاً منتبه لا ذهول عنده . عما ينافيه . من موجودات هذا الكون ولا عما يماثله مما فيه ، اي انه ملتفت الى ما في العالم مما في سمائه ، ومما في ارضه ، من بحره وبره ، وما فيهما من ذوات الارواح كالراهب وغيره وما على الارض من الكوخ والقصر والقبر وانه يسأل ؟ ويطلب الحق فاذا كان صادقاً من دعواه هذا فلماذا لم يحصل له غير الشك ، ولماذا يقطع طريقه متعسفاً متكلفاً ليس يدري ، ولم يصل الى الحقيقة . وفي هذا العالم من الآيات البينات الدالة بوضوح على الحقيقة التامة الكاملة والجلية الواضحة والبينة الناصعة .

فدعوى الانتباه وعدم الذهول عما في العالم . واثر هذه الدعوى وهو الشك والارتباك . متنافيان . اذ لاينبغي لعاقـل منتبه ان لايعرف ان المركب لايعقل ان يكون قديماً . والمحتاج في وجود يستحيل ان يكون

واجباً : ولا يصدق هو ان الكوخ والقصر على ماهما عليه من وضع وبناء وهندسة قد صدرا عن غير ذي شعور ، بل لايحتمل ذلك فكيف احتمل بان هذا العالم بما فيه من اعاجيب الصنعة ، وبدائع التكوين ، قد صدر عن غير ذي شعور . ولماذا لم يصدق بانه قد صدر عن عاقل مختار قديم بذاته . تلك اذن قسمة ضيزى قد خسر فيها المقسم . وربحت فيها المادة غير ذات الشعور ربحاً عظيماً . ومن القضايا التي قياساتها معها ان حكم الامثال سواء فلماذا لم يتساو عنده هندسة الكوخ والقصر وهندسة هذا العالم ؟

ولماذا كان الباني للكوخ والقصر عاقلاً مختاراً مقطوعاً به . والباني لهذا العالم بجميع مافيه مما يدهش في نظامه ، ويبهر في اتقانه مشكوكاً عنده في عقله واختياره . ان هذا لتهافت واضح ، وتناف فيما ادعاه بين ، فلا بد ان يكون ذاهلا قد اختلبت عقله وانتباهه غمرات المادة ونزعاتها والا لكان متيقناً جازماً فما ابعد مابين دعواه واثرها ، وما بين مقدماته ونتائجها .

(١٠١)

انما الراقـد كالمـيت في سلب للشعور
لا بما يـكتنفاه مـن بـلاء وسرور
أين رب التاج ممن تحت طيات القبور
فهما شتان في الاين ، وكل
ليس يدري

يتعرض في هذا الدور الى الفرق بين النوم والموت ، والنائم والميت . رداً على صاحب الطلاسم في طلاسمـه اذ يقول : ان يك المـوت هجوعاً بملاء النفس سـلاماً الى آخر ماجاء في هذا الدور . ومحصله ان الموت اذا كان نوماً وراحة ، وانعتاقاً من العناء . لا اعتقالا في الفناء ، وابتداء لحياة ونشأة اخرى لاختاماً محضاً لهذا العالم فالموت على هذا ينبغي ان يكون احب الينا مـن النوم ومما لاريب فيه ، اذا نعشق النوم ونحبه ، ونبغض الموت ولا نهواه ، بل نجزع منه ونخشاه . وملخص ماقاله: شيخنا في هذا الدور هو ابداء الفرق بين الموت والنوم . فان المتشابهين من وجهة لايقتضي ان يتشابها من كل جهة والراقد والميت متشابهان من ناحية ان كل منهما لاشعور ارادي . اي كما ان النائم لاشعور له عـن ارادة ، كذلك الميت لاشعور له عن اراده ، وفي هذه المرحلة بهذا الحـد هما متشابهان . وفي غيرها متبائنان حتى في اصل الشعور . فان للنائـم شعور مايتحرك بواسطته بدنه في مضجعة . والميت لاحركة في بدنه اصلا

وجسم النائم حي متحرك له نمو وذبول . وجسم الميت من الجمادات لاحركة له ولا نمو ولا ذبول . فلجسم النائم حياة . وجسم الميت معدوم الحياة . ثم قال : في المصراع الثاني لا بمايكتنفاه من بلاء وسرور . الضمير في يكتنفاه الظاهر منه انه يعود الى الراقد ، وان الراقد لما كان في هـذه النشأة المتقلبة بين البلاء للمصائب والنكبات . والسرور للذات والملائمات . فالراقد قد يكتنفه البلاء والسرور . والميت لا تطور في احواله . اما بدنه فهو في قوس النزول من التفسخ الى الرميم الى التراب . واما نفسه فان كان من المصدقين ، فروح وريحان وجنة نعيم . واما ان كان من المكذبين فنزل من جيم وتصلية جحيم . فلا تطور عنده من سيء الى حسن لا في بدنه ، ولا في نفسه ، وهذا فرق ايضاً بين الموت والنوم .

ثم قال في المصراع الثالث اين رب التاج ، اي الحي ممـن تحت طيات القبور وظلمات اللحود وبقرينه المقابلة لابد ان يريد من رب التاج هو خصوص الحي . لارب التاج الميت لانه ايضاً تحت طيات القبور . وهذا ايضاً فرق بين الموت والنوم فان رب التاج النائم نائم في فراش وثير من حديده وديباجه . والميت بين التراب والمدر . فهما من ناحية الاين اي المكان شتان وكل منهما في شغل عن صاحبه . ولا علم لكل منهما بحال الآخر . وليس يدري كل منهما عن الآخر شيأ . واكتفى شيخنا بهذا المقدار ولم يتعرض للسبب الداعي لنا ان نحب النوم . ونكره الموت . ولذلك استقصاءً للبحث نقول : انه لما كان الانسان يحب مايعرف . ويعادي مايجهل . وكنا نعرف النوم ونجهل الموت . فلذلك

نحب النوم ونكره الموت . وايضاً لما كان النوم راحة للجسم من تعب الحركة وعنائها ، والراحة محبوبه فلذلك نحب النوم . ولا نحس في الموت راحة . بل النفس ممتلأة منه هولا وخوفاً فلذلك نبغضه . وايضاً فلأنا نحب الحياة الدنيا وملذاتها . ومن احب شيئاً ابغض الضد الذي يزيله وينفيه . والموت ضد للحياة الدنيا يزيلها وينفيها . فلذلك نبغض الموت ولا نحبه . وهناك امور اخرى تدعو الى ان نحب الحياة وشئونها ومنها النوم ولان نبغض الموت ونقلاه اعرضنا عن ذكرها اختصاراً .

***

(١٠٢)

ان شربنـــا البحر قـطراً ، وأكلنـــاه ثمر
واجتنبنـــــاه شقيقـــاً ، واجتلينـــاه درر
فلمن تنتسب الشمس ، وما أصل القمر ؟
أفـــــلم يرتبـــط للعالم كنهاً ؟

ليس يدري

يوجه في هذا الدور النقد على ابي ماضي في دوره في الطلاسم . في ضمن ادوار مسائلته للبحر يخاطب البحر فيه ويقول : قـد اكلناك وقلنا قد اكلنا الثمرا وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا ترسل السحب فتسقى ارضنا والشجرا . اصواب مازعمناه ام ضلالا لست ادري . والمتحصل مما يريده ابو ماضي ان نظام هذا العالم مبتنيد بعضه الى بعض فان البحر هو الذي يرسل السحب فتسقي الارض فتنبت ويسقى الشجر فيثمر . وتشرب ماء المطر . ومن البحر ماء المطر لان السحب الذي يرسل المطر منه .

فالعالم ينظم بعضه بعضاً فهل صواب هذا ام ضلال . او ان المنظم للعالم خالق وراء مانشاهد . ولما كان مشككاً قال : لست ادري اي الـزعمين حق . وينقص عليه شيخنا بما حاصله ان امكنك ان ترد ماء المطر ، والثمر ومافي البحر من الدرر الى البحر وان البحر هو المنظم لتلك الاشياء . فالى اي شيء ترد الشمس ومجموعاتها وشعاعها وسيرها .

وكرة القمر ونظامها المرتب من هلالها الى بدرها الى محاقها وهلمجرا دواليك . فمن المنظم ؟ لذلك فهل يصح عندك ان البحر هو المنظم ام ان هناك شمس اخرى تنظم الشمس . وتنقل الكلام اليها فمن ينظمها فلا بد وان تنتهي الى منظم للعالم . هو غير مافي هذا العالم . ثم نتبسط بعض التبسط مع ابي ماضي ونقول له :

اولا لماذا اسندت المطر والثمر والشجر الى البحر وليس البحر وحده هو المنظم . بل للشمس الدخل التام في تأليف السحب والتفافها وللهواء ايضاً دخل فى تلك . فالعلل متعددة فلماذا جعلت العلة هي البحر بالانفراد .

وثانياً نقول له: ان ارتباط العالم بعضه ببعض في التفاعلات والتأثيرات واحتياج بعضه الى بعض مما لاينكره عالم ولا عاقل . ولكن الامر وراء ذلك . فان ارتباطه بعضه الى بعض دليل احتياجه . والمحتاج ليس بقديم بالذات . فاحتياج العالم بعضه الى بعض دليل حدوثه . فاين القديم بالذات .

وان القائلين بالواجب الخالق المدبر لايقولون باستناد هذه الموجودات اليه تبارك وتعالى بلا واسطة بل الفلاسفة الألهيون يحيلون ذلك ويرونه من غير المعقول . كما هو مذكور في كتبهم مفصلا ويقولون بوسائط الفيض وان لهذه الوسائط المشاهدة حكم الآلية والاعداد وان الحبة مثلا بما خلق الله فيها من المادة الغذائية . لها استعداد ان تكون نطفة . والنطفة لها استعداد لان تكون علقة والعلقة لها استعداد لان تكون مضغة . وهلمجرا حتى يستوي انساناً فلهذه الوسائط حكم الالات . ولما كان فاقد الشيء

لايعطيه فمن الموجد لهذه الترقيات ؟ وهل يعقل ان يزيد المعلول في وجوده على العلة ؟ فانه مثل المعلول بلا علة . وهو من المحالات البديهية .

وثالثا ان البحر الذي ارجع ابو ماضي جملة من الاشياء اليه هل يجوز عنده ان يكون البحر قديماً بالذات ولا يقول عالم بذلك فلا يعقل ان يحتمل ذلك ابو ماضي . فلا غضاضة في الالتزام بان الاشياء المذكورة مستندة الى البحر والبحر مستند في وجوده الى القديم بالذات ونقتصر على هذا لئلا نخرج عن وضع الكتاب والله الهادي الى الصواب .

***

(١٠٣)

قد اديلت يا ابنة القطر ويا اخت النبات

حلقات للنشئة الاولى ، وجاءت نشئات

وإذا صح ترامى الذات في شرع الحياة

فلماذا قـد أحالوه عليـــه ؟

ليس يدري

يعقب في هذا الدور الكلام على مقالة ابي ماضي من استناد موجدات هذا العالم بعضها الى بعض فيقول : شيخنا مخاطباً ابنة القطر اي المطر وهي النبتة التي تنبت غب المطر . ويقول لها : قد اديلت اي قـد تداولت حلقات النشأة الاولى لك من الذرية الى ان صرت نبته نشأة بعد نشأة وصورة بعد صورة .

فاذا صح استناد هذا العالم بعضه الى بعض ، فلازم ذلك ترمى الذات اي لاتناهيها . ومرجع ذلك الى تسلسل حلقات الموجودات الممكنة الى لانهاية . واذا كان هذا صحيحاً فلماذا قد احالواه ، وذكروا البراهين التامه على محالية ، لمحالية التسلسل في علل الموجودات الممكنة ، لان حكم الامثال سواء واذا كان كل واحد من هذه الموجودات لايوجد الا بعلته فالموجودات الممكنة كلها لاتوجد الا بعلة ، لتساوي الامثال . فكيف تأتي ؟ الى الوجود هذه الممكنات ، مـع انها جميعاً محتاجة الى العلة . فلا بد من ان تستند الى علة لا تحتاج الى علة ، وهي واجب الوجود .

ولذلك فعلى الماديين ان يلتزموا بان ذرات السديـــم ، او الجوهر الفرد ، هو واجب الوجود بالذات . ولما كان كل مادة مركبة . والتركيب ينافى الوجوب بالذات . فلذلك استحال ترامي الذات ولا نهايتها . واستحال ان يكون واجب الوجود هو ذرات السديم ، او الجوهر الفرد في لسان بعض الماديين . وهناك براهين آخر على استحالة استناد الموجودات الممكنة بعضها الى بعض الى مالانهاية فراجع كتب الفلسفة للألهيين . ولذا قال في المصراع الرابع : ـ فلماذا قد احالوا عليه ليس يدري ـ وضمير عليه اما راجع الى ترامى الذات . او راجع الى من يقول ذلك او يحتمله كصاحب الطلاسم .

(١٠٤)

نـــوقد الجزل فيعـــلى بـــدخان ولهب
ثـــم ينثال رمـاداً ، فـتراباً ، فحطب
والى حيث استحـــال الشيء منه وانقلب
يرجع الشيء كما كان ، ولكن

ليس يدري

يمثل في هذا الدور لقوسي النزول والصعود . فان الحطب الجزل يحترق بالنار فيستحيل رماداً . ثم يعود تراباً ، وهذا قوس النزول . ثم يترقى فيصعد من الترابية الى ان يصير حطباً ايضاً كما كان قبل ان يحترق وهذا قوس الصعود .

واذا كان ملموساً ومشاهداً في هذا العالم رجوع الشيء بعد التطورات التي تمر عليه الى ان يعود كما كان ، فلماذا ؟ لايجوز ذلك في نفس بدن الانسان بالنسبة الى نشأتي الدنيا والاخرة . فانه بعد ان يموت ويعود رميماً وتراباً في هذه النشأة ، يترقى ثانياً . ويعود انسانا كما كان ولماذا كان هذا موضع استبعاد ، وموقـع تعجيب ، عند المشككين كما نطق عن لسانهم الذكر الكريم

((أأذ امتنا وكنا تراباً وعضاماً انا لمبعوثون او اباؤنا الاولون))

ثم اجابهم بقوله تعالى :

((قل ان الاولين والاخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم))

ولابد من ذلك ، لبداهة انه انما يصح الثواب والعقاب بعد انتهاء العمل ولاينتهي عمل الانسان الا بالموت . فلابد من دار للجزاء ، من الثواب ، والعقاب . وهناك كثير من الادلة التي تلزم بالمعاد لايسع ذكرها هذا المختصر .

* * *

(١٠٥)

ليته استعرض لما استعرض الكون نظامه

ليته أترع من فلسفة للتكوين جامه

أينما يتجه العقل يرى الله أمامه

أينما يرعاه يلقاه ولكن

ليس يدري

يتمنى شيخنا لصاحب الطلاسم انه لما استعرض الكون ، من بحره ، وسحبه ، ومطره ، ونباته . لم ينظر الى نقطة واحدة منه ، وهي استناد بعضه الى بعض كما يدعى . بل نظر الى جهاته الاخرى ، واستعرض نظام الكون . كما استعرض الكون من هذه الجهة الواحدة . فهلا نظر الى معاجز هذا النظام وعجائب مافيه ، الذي لم يتوصل الانسان حتى الآن الا الى النزر القليل منها وفي هذا النزر القليل ، مالا يحصى من الغرائب مما في سمائه وارضه من جماد ، ونبات وحيوان وانسان . وقد مرّت الاشارة الى لمح منها فيما مضى من الادوار السالفة افهل ينبغي ان يبقى متردداً ؟ محتملا استناد ذلك النظام الى مالا شعور له ولا اختيار : كلا لو بقي لبقي في شعور لا خلاق له ، ولا انصاف ولا وجدان . وانه لجحود محض ، وعناد بحت ، أفهل يريد ؟ ان يتحيز الله له فيراه ، ويجتمع معه . تعالى عن ذلك من لايحويه مكان علواً كبيرا ، ولو نظر بعين عقله ، ونور بصيرته . لا بعشواء شكه ومخيلته ، الى ما اشتملت

عليه فلسفة التكوين من ارتباط مافي العالم باسره في نظامه العام من غير خطأ ولا باقل من قيد شعره . والا لا ندك بعضه ببعض ، وفنى الصادم والمصدوم . وذهبت السموات والارض ، وزال كل وضع ، وانحل كل جمع . اضف الى ذلك ما اشتمل عليه النظام الخاص لكل موجود من الموجودات مما يضمن بقائه الى امد المحدود له ، من قوة وضعف في جماده . ومن نمو وذبول في نامية ، ومن غذاء ومعاش في حيوانه ومما لايحصى من القوى والقابليات والاستعدادات ، والاعمال والمصانع والنتاج المرتب ، والاثر المنظم وما ازداد به الانسان من عقل وتفكير ، وادراك توصل به ان ينزو الى السماء ليعرف بعض مافيها . فلو اترع من هذه الفلسفة جامة ، لكفاه وازعاً وهادياً ، ولا متلأ جزماً وتصديقاً ، ويقيناً وثباتاً ، بعظيم قدرته وحده لاشريك له . ولصار اينما يتجه عقله لرأي الله امامه مرآة له بنور عقله ، ومشاهداً في افق يقينه ، واينما يدعاه يلقاه مدلولا عليه باوضح الدلالات ، ومكشوفا بابين الكواشف ، ومشهوداً باظهر الشواهد . ماأجلاه ؟ لمن عرفه . وما اخفاه عمن حاد عنه وجهله . ويالالأسف ان عاد صاحب الطلاسم مع هذا كله ليس يدري .

(١٠٦)

عاج في الدرب ، ودون الدرب باب ذو رتاج
ماتخطى مـــن سيـــاج الشك الا لسيـــاج
واذا كان الدواء الداء ، فالموت الـــعلاج
عندمـا تحتدم الاوهـــام فيمن
ليس يدري

يستعرض في هذا الدور السبب المانع لصاحب الطلاسم عن الانتهاء الى الجزم بالواقع ، والوصول اليه . وذلك لانه مشى في الدرب ، ورجع في نفس ذلك الدرب . على غير محصل لانه وقف في طريقة باب ذو رتاج ، لم يستطع فتحة . بل على الاصح لم يحاول فتحة ، لانه لم يتحد لان ينتقل من الشك الى اليقين ، ومن الجهل الى العلم . بل أخذ يتنقل من سياج شك الى سياج شك آخر .

فوقف على البحر والكوخ والقصر والقبر والراهب . وتمرغ في جهة الشك فيها . واهمل الف جهة وجهة فيها ، لو استفتحها لا نفتحت له مشيرة الى الهدى المستنير ، والواقع اللامع ، والحق الواضح . ولكنه لم يستفتحها ، واقام شكه دونها ردماً حاجزا ، وسداً مانعاً ، وصار يدادي داءه بنفس دائه . ويستحيل ان يدفع الشيء مقتضيه ، وينفيه مايستوجبه . ولا مناص مـــن ان ينتهي الى الموت حيث يكون الداء مهلكا . وانما قال : فالموت العلاج لانه به ينتهي الداء بنحو السالبة بانتفاء الموضوع .

ومراده من الموت هنا هو النهاية ، مع عدم حصول الغاية . فهو هلاك في عالم الروحانيات ، وموت في دنيا المعنويات . وذلك عندما تحتدم الاوهام ، وتتراكم الشكوك ، ظلمات بعضها فوق بعض ، احاطت فيمن ليس يدري بجميع جهاته ، وانحاء توجيهاته ، ومتشابهات تخيلاته ، واذا كانت الخطوة على نفس الخطوة لايقطع سهلا ، ولا يجتاز ربوة ، نعوذ بالله وبلطفه من سوء العاقبة وخيبة المنقلب .

***

(١٠٧)

كـلما انهلت نفسي منك تزداد غليـلا
واذا صعدت طرفي عاد بالرغم كـليلا
لاسبيـل يـتراءى لي فـاجتاز السبيلا
أنـا لا ادري ، وكم حيران مثلي
ليس يـدرى

لايخفى ان معرفة حقيقة الشيء ، وهويته تنحصر بالماهيات المركبة ، من الممكنات لتحليل اجزاء الماهية . فيمكن ان نعرف حقيقة الانسان بتحليله الى الحيوان والناطق ، فيصح ان نقول عرفنا الانسان . لما عرفنا ان هويته مركبة من الحيوان والناطق ، او من البدن والنفس . ولا منافات بين معرفة المركب بهذا المقدار من المعرفة ، وبين الجهل بحقيقة اجزائه وهويتها ، فانا نجهل حقيقة النفس . ولكنا لانجهل المركب من النفس والبدن بانه مركب من النفس والبدن . فالمراد من معرفة المركب معرفة انه مركب لا معرفة الاجزاء المركب منها بكنهها . ومما ذكرنا يظهر انه لايمكن فعرفة البسيط لغرض عدم تركيبه . نعم يمكن معرفة البسيط بآثاره وخواصه ، وهذه معرفة له برسمه لا بحقيقته وكنهه . ومعرفة البسيط من الممكنات بخاصته واثره يمكن ان تكون معرفة تامة بالاحاطة بجميع خواصه وآثاره . اذ لامانع عقلا من احاطتنا ببعض الممكنات بجميع خواصها وآثارها ، لان الممكن محدود الخواص والآثار ، ولا مانع من

الاحاطة بالمحدود بالاحاطة بحدوده . ويمكن ايضاً ان نعرف البسيط بالاحساس بها وان لم تعرف كنهه كما تحس بانفسنا من دون ان تعرف كنهها . واما الواجب تبارك وتعالى فمعرفته بكنهه وحقيقة محال لوجوده نذكر بعضاً منها :

الاول : انه بعد ماعرفت ان البسيط من الممكنات لايمكن معرفته بكنهه فكيف بالواجب بالذات ؟ الذي هو فوق البساطة الموجودة في الممكنات البسيط .

الثاني : انه لو فرضنا امكان معرفة البسائط الممكنة بكنهها لانها محدوده ولكن لايمكن معرفة الواجب بالذات . لانه لاحد له ، ولو كان محدوداً لكان ممكنا تعالى عن ذلك . لاحتياجه الى مابه الابتداء . وما بـه الانتهاء . والاحتياج ينافي الوجوب بالذات كما تقدم بيانه :

الثالث : ان معرفة الاشياء بحقيقتها ، انما هي بالاشباه والنظاير . ولما كان لانظير للواجب . لانه وحده لاشريك له . فلا يمكن معرفته بكنهه وحقيقته . ومن الواضح انه لايمكن معرفته بالاحساس به . لانا انما تعرف انفسنا بالاحساس بها لاحاطة انفسنا بانفسنا . ولا يعقل احاطة المتناهي المحدود . بغير المتناهي وغير المحدود . وغاية مايمكن معرفة الواجب جل وعلا باثارة ، ككونه خالقاً وموجداً ، وهذه معرفة له ببعض صفاته وايضاً معرفته ببعض هذه الصفات انما هي معرفة بعض حدود هـذه الصفات . لا بحدودها تماماً . لان معرفتها بحدودها تماماً يتوقف على الاحاطة بجميع مخلوقاته وايجاداته . وجميع مخلوقات وايجاداته ايضاً لاتتناهى ، فلا يعقل معرفتها تماماً بجميع حدودها .

واذا عرفت ماذكرنا تعرف ماراد بالمصراع الاول وهو قوله : كلما انهلت نفسي منك تزداد غليلا - فان مراده من انهال نفسه ، انهالها بالمعرفة . ولما عرفت من انحصار معرفته ، بمعرفة بعض صفاته ، وبمعرفة بعض حدود هذه الصفات لا بتمامها . فلا محالة كلما انهل نفسه بمعرفة بعض حدود صفاته لاتروى نفسه بهذا الانهال ، لانها لم تصل الى تمام حدودها وحب المزيد من العلم . يوجب الشوق المتوثب في افق النفس ، والتعطش الى الاستكثار من هذا الرأي . فلذلك كلما عرفت مقدارا تزداد غليلا لمعرفة الحد الابعد من الحد الذي وصلت اليه .

ومما ذكرنا يتضح مراده من المصراع الثاني وهو قوله :

واذا صعدت طرفي عاد بالرغم كليلا . لان معرفة المقدار القليل مما لايتناهى مع العلم بانه لايتناهي يوجب رجوع الطرف المصعد كليلا .

ومما ذكرنا يتضح ايضاً المصراع الثالث : لوضوح انه لايوجد سبيل لان مالا يتناهى من جبروت سلطانه ، وجليل قدرته ، آثار صفاته الحسنى وامثاله العليا ، جل وعلا وعز شأنه .

ثم يقول : انا لا ادري . وكم غيري حيران مثلي لايدري ولا يمكنه ان يدري بمن فوق مالا يتناهى . بما لايتناهى قوة وشدة وعدة ومدة .

(١٠٨)

عظم المنشىء ، حتى ارتبكت فيه الظنون
فتعالى الله رب العرش عما يصفون
قابضاً ما كان بالامس . مفيضاً مايكون
أترى يعذر عن ادراكه من
ليس يدري

يامن قد اختفى لفرط نوره ، الظاهر الباطن في ظهوره ، وكيف ، ينظر عين الشمس من ارمضت بها عيناه . اما عظمته تبارك وتعالى التي نعرف منها قدر ماتصل عقولنا اليه ، ان له في كل شيء اية ، تدل على انه واحد ، قادر ، موجد ، خالق ، مكون ، مدبر ، فاطر السموات والارض ، له الاسماء الحسنى والامثال العليا . وهذا المقدار من المعرفة كاللاشيء من الشيء وكالعدم من الوجود ، واما ارتباك الظنون فيه تعالى شأنه فسببه قصور الافهام ، وانغمارها في ظلمات الاوهام ، واستكبارها لعظمة الاتقان ، وجلالة الاحكام . فهذه هي التي جعلت على الابصار غشاوة . ومن الواضح ان قصر فهم الحيوان ، يمنعه عن ان يدرك من الانسان غير شبحة الذي يرتسم في عينيه ، ومن خلق اكمها في بطن امه لايمكن ان يدرك النور ، ولا الوان المبصرات ، ومن استكبر شيئاً ، قد يحدده استكباره الى انكاره ، كما انكر بعض النصارى وجود المسيح من اصله فكفروا . وقد سمعت من بعضهم ذلك وانه كيف يوجد انسان من

غير تلقيح . ولذلك ارتبكت فيه الظنون . فمنهم من شك فيه ومنهم من اشرك به وقال بإلهين : اله الخير ، واله الشر ، والنور ، والظلمة ، ومنهم وثنيون كعبدة الاصنام . والبقر . والشجر ، وغير ذلك . ومنهم من شبه به وقال بان له عين ويد وقدشطح في التشبيه بعض المشبهة فجعل له كل للانسان . ومنهم من جعل صفاته في قبال ذاته وقال ـ بالقدماء الثمانية ـ الى غير ذلك من المذاهب الباطلة المستقصى الكلام فى بطلانها ونساءها في محله . والى هذا اشار بالمصراع الثاني بقوله فتعالى الله رب العرش عما يصفون تعالى عن ذلك علواً كبيرا . بل هو الواحد الاحـــد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد ، القابض الارواح المتوفى الانفس ، الواهب الوجود وباسطة ، ومفيضه على هياكل الممكنات . افبعد هذا ؟ كنه يعذر عن ادراكه والاعتراف والتصديق واليقين به تعاظمت افعاله وجلت قدرته من قال لست ادري .

(١٠٩)

فترى الكون من الذر الى الطود العظيم
هاتفاً باسم مفيض العدل والمنشي القديم
خاضع التكوين ، مقسوراً على النهج القويم
مذعنا للمصدر الاول لكن

ليس يدري

يعلي في هذا الدور دلالة مخلوقاته ، عليه عز وجل ، دلالة المعلول على العلة ، والاثر على المؤثر . والممكن على الواجب . والحادث على القديم والموهوب على الواهب . والمخلوق على الخالق . بفقرها ، وتركيبها ، واحتياجها وامكانها وحدوثها . على غنائه ، وقدرته ، ووجوبه ، وقدمه ، مما في الكون باجمعه ، من الذر الى الطود ، ومن الصخرة الى الدورة ، ومن الحضيض الى الذروة ، ومن البذرة الى الشجرة ، ومن احساس العلقة . الى معقول ادراك النفس الناطقه ، ومن ايصال كل ذي حاجة في وجوده الى حاجته .

ومنهم من بسط رزقه عليه ، وبعثه اليه من دون توسط كسب منه . لعجزه عن كسبه .

ومنهم من اعطاه قدرة الكسب ، فوكله الي سعيه ودأبه .

كل هذه الامور وغيرها تهتف بجلالة ، مفيضاً وخالقاً ورازقاً

وتصدع بعدله في هباته ، وتدل عـــلى قدمه بذاته ، وتضرع خاضعة لتكوينه وتدبيره ، وفضائه وتسييره . مقسورة على النهج القويم ، والطريق المستقيم ، والوضع الحكيم . مذعنة لفضله ومنه الكريم اولاً واخراً ومبدئاً ومعيداً ولـــكن ليس يدري بذلك من قال لست ادري .

***

(١١٠)

أفلغز سرمدي من أناطته الحكم ؟
أفسر من تناجى باسمه مليون فم ؟
افيمحوا منشأ الناموس ناموس للعدم
أفيبقى هزج الاكوان سراً ؟

ليس يدري

يقول شيخنا ليس الله بلغز سرمدي . وكيف يكون ؟ لغزاً سرمديا وقد علقته الحكم والبراهين في العقول والمدارك . ثابتا جلياً بيناً وليس هو جل وعلا بسر خفي . وقد ظهر مصدقاً به ، ومعترفاً بربوبيته ، وسعة قدرته . مليون وآلاف الملايين من العلماء العقلاء بافواههم ، وكتبهم واقلامهم ، وما ذكرنا هو مراده بالمصراع الاول والثاني ثم قال في المصراع الثالث افيمحوا منشأ الناموس ناموس العدم ؟

المناسب من معاني الناموس في المقام الشريعة ، ودعاء العلم . وله معان آخرى لاتخلو عن المناسبة الا ان المعنيين المذكورين انسب ظاهراً .

والحاصل انه يستفهم مستنكراً ؟ او متعجباً ! ان من اناطته الحكم وتناجى باسمه مليون فم . هل يمكن ؟ ان يمحو شريعته التي تضمنت آلاف الألآف من الشرايع . شريعة العدم ، من عدم التصديق ، وعدم

الاعتراف ، وشريعة وجود السماء والارض . وما بث فيها من دابة ، ومن جماد ونبات ، وشريعة التدبير ، والتسيير والاحكام والاتقان ، والجبروت والسلطان ، وغيرها مما لايحصى من الشرائع . تمحي هذه كلها شريعة العدم : كلا ان هذا لظلم عظيم .

ثم قال في المصراع الرابع افيبقى هزج الاكوان سراً ؟ ايضا يستفهم مستنكراً او متعجباً ! انه هل يمكن ان يبقى سراً من تجلى واضحاً . تغرد هازجة بوجوده وقدرته وايجاده الاكوان . ليس يدري به من قال لست ادري :

***

(١١١)

أنت أنت السر في الكون ، وجوداً وفناء

أنت أنت الكل في الكل ابتداء وانتهاء

انت في الارض آلـه ، وآلـه في السماء

انت بلبلت بك العقل فاضحى

ليس يدري

يحي ويميت . وهو حي لايموت . فالوجود ، والفناء ، والحياة والممات ، والبقاء والانتقال ، والحل والارتحال : كل ذلك منه وله وهو الكل في الكل أولا واخراً ، ومفتتحاً ومختتماً ومبدءاً ومنهيا . وهو في الارض الأله وفي السماء هو الاله ، لافاعل للوجود الا الله . وانت الذي تشوش العقل واضطرب لعالي عظمتك ، وسامي قدرتك . فلم يستطع ان يصعد لها بعقله . لتقصيره واتجاهه الى غير الهدف الحق . فاضحى ليس يدري قائلا لست ادري .

(١١٢)

اي اثـارك تخفى ؟ اي الائك تجحـــد ؟

انت في الكوخ المعفى ، انت فى الصرح الممرد

انت انت الله بالامس ، وانت الله في الغد

انت سر السر فى العالم ، لكن

ليس يدري

قد تقدم بيان مايريده في هذا الدور من آثاره تبارك وتعالى لايعقل ان تستند الى غير مما لاشعور له ولا اختيار ، فيستحيل ان تخفى ، وان تجدر وان الطبيعة والمادة هما بذاتها ممكنان حادثان . ولا محالة من لزوم استناد الممكن الى الواجب بالذات ، والمختار بالذات . والا لما شمه رائحة الوجود .

وان الكوخ والقصر الذين سئلها صاحب الطلاسم ، هما بنفسهما من آثاره عز وجـــل . ولكن لم ينتبه الى الجهة الواضحة فيها ، الدالة على ذلك . فرجع في سئواله لهما من غير محصل وهذا مراد شيخنا من قوله : في المصراع الثاني انت في الكوخ المعفى . انت في الصرح الممرد . ومثله يريد في المصراع الثالث بقوله :

انت انت الله بالامس . وانت الله في الغد .

فان واجب الوجود بالذات لما كان قديماً بالذات . فهو لم يزل ولما كان يستحيل عليه الفناء ، اذ معنى وجوب الوجود بالذات ضرورية

الوجود ، فوجوب وجوده عين ذاته . فلا يعقل ان يكون له فناء . ولذا كان هو الله في الغد كما كان هو الله بالامس .

ولما كان هو الخالق المدبر لما في العالم قال : في المصراع الرابع انت سر السد في العالم لكن ليس يدري به من قال : لست ادري وانما قال سر السر ، لانه لما كان السر الحافظ لبقاء العالم هو نظامه المرتب المستقيم . وكان الله تعالى هو خالق النظام ومكونه كان هو عز وجل سر آله .

***

(١١٣)

جرفتنا نحوك الاوهام من يم ليم
فتعالى لجب الدهر وضوضاء الامم
حسبوا كماً وكيفاً ، حيث لاكيف وكم
حسبوا ايناً ، ولا اين ، ولكن

ليس يدري

مراده من الاوهام التصورات الخالية عن البراهين التامة ، والحجج البالغة . والتصورات بما هي تصورات كما تشتمل على الصور الباطلة تشتمل ايضاً على الصور الحقة . ولعله لذلك جعل وهمه من جملة الاوهام المنجرفة من يم الى يم . ولما كانت الاوهام مختلفة . فلذلك تشعبت الآراء ، واتسعت المذاهب . فبعض من شك وبعض من اثبت . والمثبتون تشعبوا على آراء منهم قال ان القديم هو المادة ، وهم الماديون الدهريون ولازم مقالتهم كون الواجب القديم بالذات ، ذا «(كم)» لان المادة لها ابعاد ، من الطول والعرض والعمق ، واذا كان يلحقها عرض الكم ، يجوز ايضاً ان يلحقها عرض الكيف ، فانه لو فرضنا ان كان من له شعور حجمه بمقدار حجم الذرات السديميه ، او الجوهر الفرد . لكان بحماسته لاحد الذرات يشعر بالمماسه لها . وهذا هو الكيف الملموس الموجود فيها . وهو احد انواع الكيف . ويلحقها عرض الاين ايضاً وهو مقوله المكان . لان من له ابعاد فلا بد وان يكون له حيز ، وهيئة التحيز هي من مقولة

الاين . ومن المثبتين للواجب القديم بالذات من ينفي ان يكون هو المادة المسلوبة الشعور والاختيار . وقال : بانه مختار عاقل ولكن مع ذلك اثبت له الجسمية ، ولازم القول بالتجسيم ان يكون له كم ، وكيف ، واين ، وهم المشبهة . وهم على اراء مختلفة ، قد ذكرت مفصله في المسفورات الكلامية . وتاريخ الاديان . ولذلك قال في المصراع الثاني فتعالى لجب الدهر ، اي اهل الدهر وضوضاء الامم بالاقوال الباطلة ، والاراء الفاسده . ثم اشار بالمصراع الثالث والرابع الى اللازم الباطل لأرائهم بقوله :

حسبوا كما وكيفاً . ولما قامت البراهين والحجج على استحالة كون الواجب بالذات محلا للاعراض ، لمنافاته للوجوب الذاتي . كما تقدمت الاشارة الى ذلك فيما تقدم قال حيث لا كيف ، ولا كم ، ولا اين ، ولكن ليس يدري من قال لست ادري .

(١١٤)

لم تزل خلف حجـاب الغيب سراً مضمرا
كل ما فى الـكون الاك حديث مفترى
اين ، لااين ، وكل للصيد فى جوف الفرى
اين عن بابك يحدونا الى ما

ليس يدري

ليس في هذا الدور مايحتاج الى البيان وقد تقدم بيانه مكرراً في بيان الادوار السابقة فلا وجه للاعادة .

***

(١١٥)

يتسامى نحوك العقل اذا ضل الدليل
فوجود الكون ، لولاك ، وجود مستحيل
سبحت باسمك آبائى جيلا بعد جيل
فحنانيك ، تفضلت على من
ليس يدري

يحتمل هذا المصراع وجهين :

أن يكون الدليل الضال ، هم العلماء ، فيكون المراد على هذا انه لو فرض ان العلماء كلهم ضلوا ولم يهتدوا اليك . فان العقل يتسامى اليك بنور الحجج ، والبراهين الصحيحة الثابته .

الثاني ان يكون الدليل الضال هو الحجج الزائفة . فان العقل بوجدانه وفطرته يتسامى اليك ، لان الامر الضروري البديهي لايحتاج الى اقامة برهان على وجوده . ومثله ان النقيضين لايجتمعان ولا يرتفعان . وان الكل اعظم من الجزء . وان مساوي المساوي مساو لذالك المساوي . وقد بلغ ظهور الواجب بالذات الفاعل المختار ، لدى العقل بحسب وجدانه هذا النحو من الظهور ، فلا حاجة الى اقامة برهان وحجة . ثم يشير في المصراع الثاني الى وجه هذا الظهور وهو ان وجود الكون الممكن بجميع مافية لولاك لكان وجوده مستحيلا ، لاستلزامه التسلسل الباطل ضرورة .

واستلزامه التسلسل الباطل ضرورة واستلزامه الترجيح بلا مرجح وهو بديهي البطلان ايضاً . او كون العدم المحض مؤثراً وهو واضح الفساد وغير ذلك مما يدركه العقل بجلاء وبداهة . ثم يقول :

في المصراع الثالث باني نشأت على ذلك وتلقيته مصمد قامعترفاً به من ابائي جيلا بعد جيل . ثم يشكر الله ويحمده في المصراع الرابع على تفضله بذلك : وانه ماشك حتى يحتاج الى ان يلتمس الدليل والبرهان : ولما كان كل شخص في بدء امره جاهلا . ثم ينتقل الى المعرفة فهو قد انتقل من الجهل الى العلم والتصديق من دون واسطة التماس الدليل . وهذا فضل جزيل ، ومنّ عظيم ، منه تبارك وتعالى على من ليس يدري .

* * *

(١١٦)

عصفت تهتف بالحق ، وكم من مستريب
مولع بالشك ، لايطربه لحـن المجيب
وعلى كل وجود ، ماثل ألف خطيب
كلها للسنة تملي ، ولـكن
ليس يدري

يقول ان جماعة آبائي جيلا بعد جيل ، عصفت تنادي بالحق اعترافاً ويقينا ، وتصديقاً به . وكم هناك غيرهم من مستريب تائه في ظلمات شكه مولـع به . مأخوذاً بنزعاته ، مغموراً باوهامه . حتى صار كالجماد لايطربه اللحن ، ولا يهزه التغريد ، ممن يجيبه عن شكوكه . ويوضح له زيفه وبطلانه .

ثم يقول : في المصراع الثالث وعلى كل وجود ماثل الف خطيب ، يشير الى ماتقدمت الاشارة اليه في السابق ، من ان في كل وجود مـن موجودات العالم خطباء ، تنطق بالسنة مختلفة من حيث الدلالة ، لتعدد الجهات فيها . ولكنها متفقه المودى والمدلول ، بان خالقها الواجب القديم بالذات الفاعل المختار .

ولذا قال : في المصراع الرابع كلها السنة تملي بذلك . ولكن ليس يدري به مـن قال لست ادري فهي بامـكانها واحتياجها ، وفقرها

وتسييرها ، وتدبيرها ، وبعثها من كتم العدم . الى ظهور الوجود . وحياتها وموتها منتقلة من هذه النشأة الى النشأة الاخرى . وغير ذلك تنطق بالسنة مختلفة ، مشيرة اليه ، ودالة عليه . صارعة بهيبتها على واهبها ، وبخلقها على خالقها وبرزقها على رازقها . مسبحة له - وان من شيىء الا يسبح بحمده ولكن لايفقهون تسبيحهم -

***

(١١٧)

قطرات لم تزل تسمعنا وكف للدهـور
وسطور ترجمتهـا صفحـات وسـطور
إن يـكن غاية سير للنفس موتاً ودثور
فإلى أين يسير الموت فيها ؟

ليس يدري

هـذا الدور واضح بمصراعيه الاول والثاني . واما المصراع الثالث والرابع فحاصله ان النفس الناطقة في هذا العالم . لو كان غايتها الموت والفناء ، لما كانت بسيطة مجردة . وقد ثبت تجردها وبساطتها بالأدلة التي لامحيص عن التصديق بها . كما هي موجودة في كتب الفلسفة ، كالاسفار وغيره . فاذاً الى اين يسير الموت فيها ، ولا بد ان يسير بها من هذه النشأة الفانية الى النشأة الخالدة . لان الموت ليس هو الا انقطاع تعقلها بالبدن . فاذاً هي موجودة وكل موجود في حال وجوده . باق فاذاً كان لها بقاء وليس هو هذه النشأة . فلا محالة من تحقق النشأة الاخرى لها . ولكن ليس يدري بذلك من قال لست ادري .

(١١٨)

ليس في العالم شيء كائن أو سيكون
نبضت منه عروق العلم بالسر المصون
غير تفريق وجمع ، وحراك وسكون
كيفما شاء لها الناموس ، لكن
ليس يدري

يقول في هذا الدور ان جميع مافي العالم من الموجودات من كائناتها الفعلية . وممـا سيكون فيها ، هو عباره عن تأليف بين اجزاء متفرقة ، وتفريق لاجزاء مجتمعه . فالانسان مثلا عباره عن اجتماع لحم وعظم وعصب ودم ونفس . وكل جزء منه عدا النفس في راي القدماء كاللحم مثلا فانه انما يكون لحماً ، بعد استحالات وتطورات وانتقال من البذرة ، الى النبته ، الى الحبة ، الى الغذاء . ثم لايعود لحماً الا بعد استحالات وتطورات اخرى تطرأ عليه . بعد مضغه ودخوله المعدة . وهذه الاستحالات والتطورات مرجعها الى خلع حد لصورة ولبس صورة اخرى . فالبذرة تخلع حد الصورة البذرية . وتلبس الصورة النبتيه . ثم تخلع هذا الحد وتلبس الصورة الحبية ، وهكذا موجودات العالم كلها على هذا النحو والنظام . فهي عبآرة عن تفريق ، وجمع .

ولما كانت الاستحالات والتطورات عبارة عن حركة من صورة الى صورة .

فلا محالة تكون موجودات العالم متحركة ، في حال انتقالها من صورة الى صورة . وساكنة في حال فعلية تلك الصورة لها . بناء على عدم الحركة الجوهرية . واما بناءً على الحركة الجوهرية ، التي ذهب اليها صدر المتألهين ، وتبعه الفلاسفة المتأخرون . لان الاستحالات ليست دفعية . بل تدريجية ، فما له الاستحالات متحرك تدريجا . وكل جوهر له استحالات فهي في حركة . ولا سكون للجوهر . وبناء على ماذهب اليه ايضاً من تجوهر الاعراض . وان الاعراض مرتبة من الجوهر ضعيفة لان العرض هو الموجود في الموضوع على ماعرفوه .

ولما كان الاعراض منتقلة بالوجدان كالحرارة المنتقلة من جسم الى جسم . فلا محالة لاتكون الحرارة عرضاً . والا لاستحال انتقالها . لبقائها في آن انتقالها من غير موضوع . فلا بد ان تكون مرتبة من الجواهر ضعيفة . وتفصيل الكلام في هاتين المسئلتين موكول الى محله .

ولما كان جميع موجودات العالم هي الجواهر والآعراض . فلا سكون في العالم . وانما هو في حركة مستمرة . ولكن شيخنا جرى على رأي المتقدمين فقال : وحراك وسكون كيفما شاء لها الناموس من انواع التسير والتحريك ، ومختلف اطواره ، وما لايكاد يحصى من شعبة واصنافه لكن ليس يدري بذلك من قال لست ادري .

(١١٩)

اصحر الليل ، فاصحرت نجوماً وكواكب
ومشى الـدهر فركزت صفوفاً وكتـائب
وطغى الجهل فاغليت عقـولا ومواهب
فمضى يهزأ من يدري فيمن
ليس يدري

التاء في اصحرت تاء الخطاب للعالم . يستعرض مـن هذا الدور التطورات الخارجية للعالم . والمعنوية .

ففي المصراع الاول يشير الى تطورات العالم من حيث الليل والنهار فانه لما ينساق الليل ، ويصحر ، تصحر النجوم فيه . ولما يذهب ويأتي النهار تختفي النجوم ، ولا يبقى منها غير قرص الشمس .

وهذا مثال للتطورات الطارئة على الموجودات الثابتة . وفي المصراع الثاني يتعرض للتطورات الذاهبة ببعض الموجودات والأتية بالبعض الاخر كحركة الدهر في الحياة والموت . وتتركز لهذه الحركة ، الصفوف والكتائب ، فيذهب صف ، ويجيء صف ، وتضمحل كتيبة وتجيء محلها كتيبة اخرى .

ثم تعرض بالمصراع الثالث للتطورات المعنوية من الجهل والعلم فقال :

وطغى الجهـل فاغليت ايها العالم عقولا ، ومواهب تتصاعد في

غليانها ، وترجع شاكه متوثبة من شك الى شك ، تصعد الى شك وتهبط الى آخر . فهي كفقاقيع الماء حين يغلي ، وكالبخار الصاعد منه الراجع عند اصطدامه بالطبقة الباردة .

ثم اشار الى العلم عند اهله بالمصراع الرابع بقوله : فمضى يهزأ من يدري فيمن ليس يدري .

* * *

(١٢٠)

كم طوينا ونشرنا من سماك الصحيفا !!

ووصفناك ، وأني يهتدي من وصفا ؟

لم يكد يصمد آناً ، لك الا انجرفا

وحداه رائد للوهم الى ما

ليس يدري

المصدقون بالله. والمكذبون والشاكون به . كلهم متفقون على اعاجيب السماء وما فيها من الكتب القيمة . غير ان المصدقين بالبرهان والوجدان اهتدوا الى اليقين ، وانصاعوا الى الحق . والمكذبين والشاكين خلطوا ، وتخبطوا في افكارهم وشكهم . وما استسلموا للبراهين من دون مبرر لعدم الاستسلام ، ولكن الجميع مندهشون اعجاباً واكباراً لما تحويه السماء من عظيم الخلقة ، وبديع الصنعة ، وغريب التخطيط والتدبير ، وبديع النظام والتكوين ، وكما وصفها المصدقون بمقدار ماادركوا ووصلوا لما هي عليه من الاعاجيب ، ووصفها المكذبون والشاكون بمثل ذلك الوصف المبهر . لذلك استفهم ؟ وانى في قوله وانى يهتدي من وصفا جارية مجرى قوله تعالى انى يحي الأرض هذه بعد موتها . ولذلك قال : بانه اما آن لهؤلاء المنكرين ، والشاكين . ان يستبدلوا الانكار ، بالاعتراف والشك ، باليقين الا يكفيهم ماوصفوه . ان لايسندوه للمادة والصدفة : ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا . وماذا ؟ يطلبون

ايطلبون ؟ ان تعترف لهم المادة بعجزها . ولو كان لها شعور ولسان . لبرأت مما نسبوه اليها ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب . ثم قال بالمصراع الثالث : لم يكد يصمد آناً من وصفك من المنكرين والشاكين الا انجرف عن سبيل الهداية ، والطريق المستقيم . لانه مع وصفه لذلك الابداع لايزال باقيا على شكه . والسبب في ذلك انه انساق لحداء رائد الوهم الى ماليس يدري .

الناشي عن حب الانطلاق وعدم التقيد . ليصفو له مجال الانغمار في الشهوات واللذات .

* * *

(١٢١)

لمن الارض استقلت فوق اثباج الهواء ؟
ألحكم الجذب دانت ؟ أم لحكم اللاخلاء ؟
أم على قاعدة للنشء سرت والارتقاء ؟
أم لناموس قضاء الله ذلت ؟

ليس يدري

وفي هذا الدور يتعرض للاحتمالات حول بقاء الارض والسماء جارية في خطوطها . قد اخذ كل مجراه من دون ان يحيد عنه ، ولا بمقدار ذرة او اصغر منها من دون ان تهبط بعضها على بعض . فهل ان ذلك ؟ لاجل قوة التجاذب . كالشيء الموضوع بين حجري المغناطيس اذا تكافأت قوة الحجرين . فانه لامحالة يبقى الشيء في مكانه ومركزه . ام ان ذلك لاجل لاخلاء الفضاء ، وان امتلاءه هو الذي يمنع كل كوكب ان يحيد عن مجراه . كالماء الجاري بين شاطئين قويين يمنعانه من الأنهيار . فلا يزال يجرى بينهما على نظام مستقيم . ام ان ذلك لقاعدة النشوء والارتقاء وانها كما يدعونها في نشوء الانسان في الحلقات التي تصوروها له : يدعونها في الكواكب ومجاريها . وان اول تكوينها صغيرة ، وفي حال صغرها اخذت خطوطا لسيرها منظمة . ثم كبرت فاتسعت مجاريها على نحو ذلك النظام . ام ان الحافظ لها والمسير لنظامها ناموس قضاء الله وقدرته ، في تدبيرها وتسييرها . فهي لقضائه دانت ، ولقدرته ذلت .

ليس يدري بما هو الصحيح من هذه الاحتمالات من قال لست ادري :

وينبغي ان لايخفى ان هذه الاحتمالات الثلاثة ليست في عرض قدرة الله وقضائه . فلا مانع من ان نقول باي واحدة منها ولـــكن نقول : ـ ان خالق التجاذب او اللاختلاء . او قاعدته النشوء والارتقاء . هو الله تعالى لانه اقتضت ارادته في الموجودات المادية ، على الألات الفاعلة ؛ بنحو مابه الوجود . لا ما منه الوجود لامتناع ان يباشر بذاته جل وعلا المادة وشئونها ، كخلق الحواس الظاهرة في الانسان ، من قوة الابصار والسمع والشم والذوق واللمس ، والقوى المغذية والهاضمة والمنمية والمكافحة للامراض والطوارئ وغيرها ، كالقوى المعدة لتكون اللحم والعصب والدم والعظام والشعر والجلد . وغير ذلك مـــن القوى في الانسان ، والحيوان والنبات ، والجماد . وهذه الافعال فيها بنحو مابه يحصل الاستعداد للوجود اما مامنه الوجود فهو تبارك وتعالى لافاعـــل للوجود غيره ولتفصيل هذا البحث محل اخر .

(١٢٢)

ناء من ناء ، فاكدى ، وتنزى من تنزى
تهزأ الاقدار منه ، وهو بالاقدار يهزا
واذا بالدهر يطوي يومه صدراً وعجزا
واذا فيه وقد فوجيء فيما
ليس يدري

يقال ناء الرجل بالحمل نهض به مثقلاً ، ويقال ناء به الحمل اثقله واما له .

والثاني انسب بالاكداء وهو الاخفاق . والتنزي والتوثب :

يفصل في هذا الدور اختلاف الناس فيما قدر لهم ، وعليهم . فان بعضهم قد قدر له ما لايقنع فيه ، فيطمع الى مافوق ماقدر له ، فيثقله ذلك ويخفق . وبعضهم قدر له كما يطلب ويريد ، فهو يتوثب من حد الى حد ، كما يهوى . بل ربما يكون المقدر له ابعد حداً مما يطلب ، وكل منهما لايدري انه مسير بتقدير لا يتعداه . فهو يهزأ بالاقدار ، ولكن بالواقع ان الاقدار منه تهزأ .

ويحتمل ان يكون الهازي بالقدر . ومن يهزأ منه القدر . هو خصوص من ناء فاكدى .

وعلى كل حال فلا محالة لكل شخص امده المحدود له في الدهر

فاذا بلغة انتهت حياته في هذه النشأة ، وانتقل الى النشأة الاخرى ، وحينئذ يكون قد فوجي فيما ليس يدري . وانتقل الى عالم لم يعرف منه شيئاً ، ربح فيه الصالحون ويخسر فيه الطالحون ، ويود لو ان بينه وبين عمله حجاباً مستوراً .

ويقول رب ارجعني لعلي اعمل صالحاً فيما تركت .

* * *

(١٢٣)

ايها الـكون ازدني في احاجيك بيـانا
انما انت لسان الله مـذ كنت وكانـا
مـارآك للعقـل الا ورأي الله عيانـا
فهو لولا الهيكل المائل اضحى
ليس يدري

الاحجيه الـكلمة المغلقة المعنى ، التي لابد من التأمل والتروي في حل مغزاها ، وقد استعارها للكون ، وجعله بمنزلة الكلمة المغلقة المعنى . ولو قال شيخنا في المقام ايها العالم زدني لكان اولى من ناحية ان ازاد لم تر في اللغة بمعنى الزيادة والازدياد . وعلى كل فمعنى المصراع الاول واضح فانه يريد زيادة البيان والايضاح من الكون فيما انطوى عليه من دقائق الامور . فان فيه من الاحاجي مالم يبلغ اليه العقول . ويقول : في المصراع الثاني انما انت لسان الله مذ كنت وكانا . كما ورد في الحديث المأثور ـ كنت كنزاً مخفياً فاحببت ان اعرف فخلقت الخلق لاعرف ـ فما في العالم كله لسان الله ، الناطق بوجوب وجوده ، قدرته ، وسلطانه تبارك وتعالى ، لان الاثر لسان ناطق بوجود مؤثرة ، والمعلول بيان كاف عن علته . وهو رشحه من رشحاتها ، وفيء من نورها ، وظلها المحسوس ، ووجهها الملموس ، ولذا قال : في المصراع الثالث ماراك العقل الا ورى

الله عيانا ، مشهوداً وشاهداً بيقين قلبه . لا ببصره وتصديق نفسه واحساسها لا بحاسة جوارحه الظاهرة ومشاهدة النفس بمدراكها الثابتة اقوى مشاهدة وابلغ حضوراً . ثم يقول : في المصراع الرابع فهو لولا الهيكل المماثل الذي هو الكون اضحى العقل ليس يدري :

والمتغلغلون في الحكمة الألهية الذين اشرقت نفوسهم بانوارها . واستقرت مطمئنة بمعارفها وعرفانها . ورجعت الى ربها راضية مرضية . يقولون : انهم لو لم يشاهدوا من الكون شيئاً ، ولم يشهدوا منه اثراً ، لدلهم البرهان اللمي . والوجدان الحتمي عليه تعالى شأنه ، لثبوت اصالة الوجود وتقدم الفعل على القوة والهيولى . بذاتها بالقوة اذلا تحصل لها الا بالصورة . ولا فعليه لها الا بفعلية الصورة . والصورة لاتكون الا بموضوعها . وموضوعها الهيولى . فالهيولى محتاجة الى الصورة في فعليتها . والصورة محتاجة الى الهيولى في موضوعها . ولا دور لاختلاف الاحتياج . لان الهيولى محتاجة في فعليتها الى صورة ما . والصورة في فعليتها محتاجة الى مادة خاصة معينة . ومع اختلاف التوقف من الطرفين يرتفع الدور من البين . بل على التحقيق انه من الدور اللعمي ، كتوقف احد الضلعين من المثلث ، على الضلع الاخر فانهما لما كانا معلولين ، لمن يخط المثلث ، فشكلها الخاص : هيئته متوقفة بعضها على بعض . ولكن لايستند وجود هذا الشكل من حيث الفاعلية لبعض اجزائه على بعض . بل العلة الفاعلة له هو الموجد للمثلث . فلا دور محال . اذ الدور الذي هو محال عند العقل ، هو كون كل واحد من الاثنين فاعلا للاخر .

ولما كانت المادة المركبة من الهيولى والصورة مسبوقة بالوجود الفاعل

والمكون لها. الوجود هو الاصيل فلابد وان يكون الوجود الاصيل هو الوجود غير المادي . وهو العلة الاولى وعلة العلل ، وهذا هو الدليل اللمي الذي يكون وجود العلة فيه كاشفة عن معلولها . وهو الذي يكون الأنتقال الادراكي فيه من العلة الى المعلول . بخلاف الدليل الاني الذي يكون الانتقال فيه من المعلول الى العلة ، وتفصيل هذا موجود كاملا في جميع مسفورات علم الحكمة فراجع اذا شئت .

***

(١٢٤)

فكرة الشاعر كلت ويراع الكاتب
ولسان المصقع الفذ . وقلب الراهب
ودماغ الفيلسوف اندك دون الواجب
ادرك الآثار . لكن ماوراها
ليس يدري

يعود في هذا الدور الى ماتقدم . بيانه من عدم امكان الاحاطة بكنه ذاته جل وعلا . فلا يعقل ان يحيط بكنه ذاته تعالى ، فكرة الشاعر ، ولا يراع الكاتب ، ولا لسان المصقع ، ولا قلب الراهب ، ولا دماغ الفيلسوف . لما مر بيانه من عدم امكان معرفة البسيط بكنه ذاته . واستحالة احاطة المتناهي باللامتناهي . ولعدم الشبيه والنظير . وغير ذلك مما يمنع بنحو الأستحالة احاطة الممكن . بكنه ذات الواجب . وغاية مايمكنه الاحاطة به هو الاحاطة باثار الواجب . او بالبرهان الدال عليه ، والمستلزم للتصديق واليقين به . ولكن ماوراء ذلك فلا يعقل ان يعلم به . ولذلك قال : ادرك الاثار لكن ماوراها ليس يدري .

ختام

أنتهى بلطف الله وبحمده وتيسيره ما اردت التعليق على اتباج الطبيعة راجياً قبوله عنده عز وجل وهو الذي يقبل القليل بفضله ، ويعفو عن الكثير بمنه : وان يكون خالصاً لوجهه تعالى . ومقبولا عند النبي الكريم وعند آله الغر الميامين ، المعصومين ، الهداة ، ومصابيح الظلمات ، الذين خلقهم الله انواراً فجعلهم بعرشه محدقين صلى الله عليهم اجمعين . وعند والدي طابت تربته ، وقدس مثواه . راجياً ان لايكون قد فاتني البر بعد وفاته سواء لم يفتني او فاتني البر في حياته فكم من ولد عاقا لابيه في حياته باراً به بعد وفاته والله الموفق وبه استعين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم هو المبديء والمعيد والمحي والمميت في النشأتين والمتفضل في العالمين وهو اكرم الاكرمين وارحم الراحمين .

الصفحة	السطر	الخطاء	الصواب
١٠	٢	المطاسم	للطلسم
١٣	١١	الوجود	للوجود
٢٠	٢	فتزى	فتنرى
٢٠	٦	بمبحض	بمحض
٢٢	٦	ان	إلى
٢٥	٣	فالتمت	فلتمت
٢٥	١٠	بين الموت	بين موت الموت
٢٨	١٠	لوخعل	لو اختل
٣٠	٧	تعجيبياً	تعجباً
٣٣	١٠	مجاربيه	مجاريه
٣٤	١٣	متبدعاتك	مبتدعاتك
٣٦	٢	تزى	تنزى
٣٦	٣	لاادلة	الادلة
٥٧	١١	الصائن	الصائب
٧٢	٢١	صبغت	صفت
٢٤	٦	مهما عليه	ماهماعليه
٨٧	١٠	معاليها	معالمها
٩٢	٤	كلمن	لكن
٩٩	٦	الاهات	الاهات
١٨٧	١	فق	فهق
دور	٦٦	عناء	؟
١٥١	٥	سلطان في اليد	سلطان العقل فاليد
١٥٥	٤	تخط	تغشاه
١٦٠	١	كسيد	كسير
١٦٠	٤	مجديها	مجريها
١٦٣	١٦	خوند	الأخوند
١٦٣	١٦	الثالث	الثابت
١٧٠	١	فندك	فاندك بمداركه
١٧٨	٥	استدبرت	استديرت
١٧٩	١٢	الناقصه	الناقضة
١٨٢	٦	طفت	طغت
١٨٥	٨	اراكهم	ادراكهم
١٨٧	٧	النشأةاخرى	نشاءه اخرى
١٨٨	٦	يغضي	يقضي
٢١٠	٣	لوجوده	لوجوه
٢١١	١٣	لان مالايتناهى	لون يعرف مالا يتناهى
٢١٢	٧	الادهام	الاوهام
٢١٣	٥	كل للانسان	كل ماللانسان
٢١٣	٧	ونساءها	وفسادها
٢١٥	٢	فصائه	قضائه
٢١٨	٣	منهباً	منهياً
٢١٩	٣	تجلدر	تجحد
٢٢٠	٤	السد	السر
٢٢٠	٧	اله	السر
٢٢١	١٠	بحماسة	بممارسته

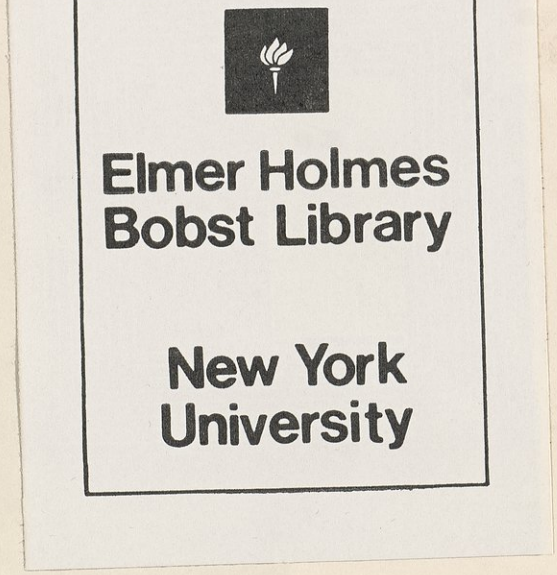
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 02886 6815
PJ7808.M3 T338 1968
Ma´¿a lliy